جمعة محمد جمعة

# المتعبون

رواية



الكتاب : المتعبــــــون
روايــــة
الكاتب : جمعة محمد جمعة

الناشـر : مركـز الحضـارة العـربيـــة

الطبعة الأولى
يوليو ٢٠٠٠

رقم الإيداع : ٣٣٤٨ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى I.S.B.N.977-291-204-X

لوحــة الغلاف : مكــــرم
تصميم الغلاف : محمـــود الهنـــدى
جرافيــــك : آرت ســــــمارت

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : سيد مكاوى

مراجعة وتصحيح : زكريـــا منتصر

# المتعبون




- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

**على عبد الحميد**

مدير المركز

**محمود عبد الحميد**

المشرف العام على السلسلة الأدبية

**خيرى عبد الجواد**

**مركز الحضارة العربية**
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
ت : ٣٤٤٨٣٦٨ ، ف : ٣١٤٨٠٤٢

## إهداء

عزيزى القارئ...

هذه الرواية روايتك، أخذتها منك متفرقات، خلجات، نبضات، وأنفاس وفقنى الله لصياغتها، أتمنى أن ترضيك صياغتى، وينال قبولك جهدى المتواضع، وإن كانت رواية (المراهقون) قد سبقتها، فليوفقنا الله فى رواية (المحبون) التى ستتبعها إن شاء الله..

جمعة محمد جمعة



# ١

عندما كان صغيراً، يأتى لزيارة خالاته بصحبة والديه، كان يخرج مع أولاد خالاته يتعرف على الناحية، مسقط رأس أسرة أمه، ماتت جدته وتزوج بقية أفراد الأسرة، يلف الناحية عدواً بداية من سيدى عباس، ينتهى العدو عنده أيضًا، وغالبًا ما يكون هو الفائز فى الوصول قبلهم جميعًا.

تعرف على الدروب والأزقة، الدروب طويلة، متسعة قليلاً، تضم أغلبها بيوتًا من طابق واحد يتوسطها صحن، تطل عليه أبواب الحجرات، وفى نهايته حظيرة المواشى، المندرة غالبا على يمين المدخل، لها نافذة تطل على الدرب، الأبواب دائمًا مفتوحة، لا يعرف الزوار طرق الباب وإنما تصفيقه باليد مع النداء على اسم صاحب البيت، أو رب الدار، يطل من النافذة مُرحبًا، قبل أن يخرج لاستقبال الزوار يكونون على باب المندرة.. الأسقف منخفضة تبرز منها كتل الخشب مرتكزة على الحوائط المبنية من الطين، لا يقل عرضها عن نصف متر، الكتل الخشبية جذوع أشجار، وفى الدور التى بنيت أو جددت بالطوب الأحمر تتميز بوجود عروق الخشب المستوية الرفيعة نوعا والأكثر جمالاً فى شكلها من جذوع الأشجار، قد يكون فى المندرة كنب من الخشب فوقه حشايا من القطن، وقد يكون عدد من الحصر، وقد تكون دكك خشبية طويلة وعريضة لها ظهر ومسندان عند طرفيها.

يحب دومًا الصعود على السلم الطينى إلى السطح، حيث الفرن، وحجرة الخزين، والطيور من دواجن وبط وأوز وحمام، وحبال نشر الغسيل، والطشوت، والأناجر، كما يوجد فى بعض الدور بنية

للحمام، إلى جوار مكان لجلوس النساء تظلله سعفات النخيل والبوص.

تعلم من أولاد خالاته كيف يدخل زقاقًا من داخل بيت إلى زقاق آخر، دومًا يسمح له كضيف يعرف الناس صلة قرابته، خالاته وجده، ينتقل من درب إلى آخر عبر الأسطح، يعرف الدروب جيداً، بعدما كبر قليلاً عرف أن بيت خالاته والبيت الذى يقع خلفه هما صرة البلد، تنتهى عندهما أغلب الدروب، كانت لعبة الاستغماية أصعب الألعاب، إذ توضع قطعة قماش على عينى الذى عليه الدور فى الإمساك، ويتفرق الجميع، كانوا يصعدون إلى السطح ويتوزعون كل واحد ينزل إلى درب من الدروب، يصعب على المسّاك الوصول إلى أحدهم، يلفون ويعودون فيجدونه جالساً متضايقًا متبرمًا، يفضون اللعبة ويفكرون فى لعبة أخرى.. قد يذهبون إلى الترعة يلقون فيها الحجارة ويستمتعون بالدوائر التى يصنعها اصطدام الحجر بالماء، أو يشاهدون الأسماك الصغيرة تجرى وتلهو، تقترب من البر وتبتعد عنه، وقد يرفع أحدهم جلبابه وينزل ليصطاد، أو يذهبون إلى حنفية الحكومة، يلعبون فى مربعها الواسع المبلط الممتلئ بالماء، لا ينسى كنزه الثمين الذى عثر عليه ذات مرة أثناء اللعب، وجد تحت قدميه نصف قرش، جالت عيناه فى كل المربع رأى نصف قرش آخر، ثم ثالثاً ولاحظ أن أحداً من رفاقه لم يرها، رغم أنها كانت - ومازالت - مرتسمة فى خياله على شكل رؤوس مثلث بين كل رأس ورأس حوالى متر.

عندما يقترب الليل، يهرعون إلى البيت خوفًا من العفاريت، لم يكن يصدّق، لكنه يذكر الليلة الوحيدة التى غالب النوم ليسمع أصواتها، لاحظ أزواج خالاته وهم يتعاونون فى رفع حجر كبير يضعونه خلف الباب المغلق، حصل فى نفسه على نصف يقين، وانتظر، كلهم ناموا ما عداه، كلما حاول النوم استمالته ، فز ونفض رأسه، قفز

وجلس على قاعدة الشباك مقرفصا، لا يدرى ما مر من وقت، سمع صوت صراخ، صوت جرى فى الدرب، صوت خبط على الأبواب، خاف، جرى إلى أمه وانكمش فى حضنها يرتعش.. منذ تلك الواقعة امتنع تمامًا عن البقاء مع أولاد خالاته بضعة أيام أو أسابيع فى إجازة المدارس..

جاءت أسرته للإقامة - منذ أكثر من عشرين سنة - فى بيت جده لأمه، شيده الجد حديثا بالطوب الأحمر والسقف بالمسلح، شقة فسيحة ومدخل وسلم من الحجارة يصعد إلى السطح وأقام للسطح سوراً من الطوب الأحمر أيضا خوفًا على الأولاد من السقوط، كان ارتفاع البيت أعلى من كل بيوت البلدة المقابلة لها، يسعده مرأى أسطح كل البيوت، يرى الأولاد يلعبون، يرقب النساء يخبزن ويغسلن ويطبخن، من بين البيوت القليلة التى بنيت إلى جوار سيدى عباس خارج دائرة البلدة، يقال إنه أول بيت فى الحارة التى أوجدها انتقال معظم أهالى الدروب والأزقة وبناء بيوت جديدة خارج المحيط فى الجهة الأخرى من الشارع الدائرى.

بعدما تغير نظام التعليم، انتقل من التعليم الإلزامى إلى الإعدادى، كان عليه أن يمشى على قدميه ما يزيد عن ثلاثة كيلو مترات حتى يصل إلى مدرسته، يمر فى طريقه بأرض الجرابيع، ثم يصل إلى نهاية الترعتين الشرقية والغربية حيث تلتقيان فى مكان أطلق عليه الميدان، يميزه شجرة عجوز ضخمة، لها عدة جذور كل جذر كأنه شجرة مستقلة، أما فروعها فكانت كبيرة متعددة السيقان والأفرع، مليئة بالأوراق الخضراء وأعشاش الطيور، استولى على منطقتها شخص ما وأقام عشة صغيرة، رص خارجها عدداً كبيراً من الكراسى الخشبية قواعدها خوص مجدول، وبعدها يوجد بعض باعة الخضر والفاكهة، على أقفاص أو

عربات يد من الخشب، يوجد أيضا عربات كارو تجرها أحصنة أو حمير تحت الطلب لمن يحتاج إليها لنقل الأشياء، يزداد عددها فى مولد السيدة زينب وسيدنا الحسين، تعتليها الأسر فى زياراتها لحضور هذين المولدين.

يقطع كامل الطريق إلى المدرسة ذهابًا وعودة على قدميه، قبل المدرسة بحوالى كيلو متر يرى البيوت العالية، ذات الأبواب الحديدية، النوافذ والبلكونات، يرى المحلات المتنوعة، محل عصير القصب، محل بيع الأقمشة، محل المصوغات، ورش الحدادة، محل الجزمجى، محل بيع الأحذية، محل الساعاتي، كشك بيع الصحف، جراج الأتوبيس حيث آخر محطة السانت - كروفت ، كشك ناظر المحطة وحوله السائقون والكمسارية، القهاوى المنظمة ذوات الأبواب الصاج، العطار، بائع الخردوات من أزرار، وخيوط، الترتر، المناديل أبو أوية والطرح، والكباسين وإبر الخياطة، يستمتع كثيراً بمشاهدة المعروضات الدقيقة فى الفتارين الزجاجية، قد ينسى نفسه حتى ينهره صاحب المحل فينصرف، وعند المدرسة اشتهر «أبو قتب»، عربة يد أبدع صاحبها فتحى فى تقسيم سطحها لكل أنواع المسليات، اللب الأسمر، الفول السودانى المملح والعادى، والفنضام، الملبس، اللب أبو شطة، الدوم، اللب الأبيض، المصاصات، الحرنكش، وفى صندوقها أسفل السطح يضع علب السجائر وأمشاط الكبريت، والبوريك أبو جبنة وأبو عجوة والسميط والدقة والبيض المسلوق.. كان كامل وصحبه من مدمنى اللب أبو شطة، يستمتعون بالحرارة التى تدب فى الجسم من تأثيره، والدوم إذ يلعبون بها الكرة بعد نحتها.

ظهر فى أيامه الفرن الإفرنجى، وفرن الخبز البلدى، ومحل لبيع الأسماك المقلية ومطعمان لبيع السندوتشات فول وطعمية وباذنجان

مقلى ومهروس وفلفل مقلى.. يبتسم وهو يذكر الرحلة اليومية والدومة التى يظل يركلها من أمام المدرسة بعد نحتها حتى البيت، يجرى وراءها بعد ركلها يمينًا أو يسارًا، وقد يشاركه أحد زملائه، لذلك لم يشعر بالتعب قط..

أفاق من ذكرياته الحلوة على صوت أبيه يناديه لتناول الغداء، تذكر أن عليه أن يذهب مشوارين ضروريين أحدهما إلى الحاج حسن برهوم لتسليمه بعض الأوراق التى فى حوزته، والآخر قضاء الأمسية الأخيرة مع أصدقائه ورفاق عمره قبل السفر.

## ٢

وقف كامل كالغريب التائه، أكثر من ثلاث سنوات وهو يلتقى مع الحاج حسن برهوم، يعملان معًا فى المدرسة مقر الاتحاد الاشتراكى، يسهران معًا، يسمران معًا، وقع فى حيرة شديدة كيف انقضت كل تلك المدة ولم يعرف له بيتًا؟ يخمن، لابد وأن يكون بيته فى درب العمدة، لم لا؟. ألم يكن هو العمدة قبل إلغاء العمودية بالناحية وتحويلها إلى مشيخة؟. دفعته الفكرة إلى درب العمدة، سأل أحد المارة عن بيت الحاج حسن، فوجئ بالرد:

- فى درب الطحان..

يتجه بخطواته البطيئة إلى درب الطحان، يصحبه صبى حتى البيت، تطلع إليه لا يدرى فى أى الأدوار يسكن : الأرضى أم الثانى أم الثالث، أم البيت كله، وقف بالباب، هل يصفق بيديه وينادى، أم ينتظر حتى يخرج أحد من البيت، أو يطل من النافذة فيسأل.. بعد لحظات سمع صوتًا يأتيه من أعلى، رفع رأسه:

- تفضل يا أستاذ كامل..

استقبله حمدى على السلم، صحبه إلى حجرة فسيحة فى الدور الثالث، فى جانب منها سرير حديدى له أربعة أعمدة تصل قرب السقف، مغطاة بطرابيش من النحاس، وشباكان : واحد إلى اليمين وآخر إلى اليسار، الحاج حسن جالس فوقه، بقميص أبيض يصل إلى ركبتيه، بنصف ياقة حول الرقبة وكمين طويلين متسعين عند الكفين، رأسه صلعاء لا يغطيها شيء، تتدلى ساقاه نحو الأرض، دعاه للجلوس إلى جواره، نظر إلى بقية الحجرة وهو يعقِّب على الترحيب، رأى كنبتين عاريتين فى جانب الحجرة الآخر، وبلاط الأرض عاريًا، مداس هنا ملقى، مداس هناك، وآية قرآنية معلقة فوق إحدى الكنبتين.

يتمنى له الشفاء بكلمات تتفق ومقتضى الحال ويشرد فكره، أهذا بيت عمدة سابق؟ وصاحب أطيان ؟! كانت قسمت إلى أراض للبناء وبيعت فى الجهة الشرقية للبلدة، ارتفع ثمنها بعد أن ردمت الحكومة الترعة وأقامت شارعًا واسعًا له جانبان يفصل بينهما رصيف به أعمدة عالية للإنارة، وعلى كل جانب رصيف، بيعت الأرض وأقيمت فوقها بيوت من دور واحد، أغلبها ودور ثان لم يتم استكماله، أهذا مظهر عمدة سابق؟ صرف تعويضًا مجزيًا من الحكومة مع عدد من الأسر ثمنًا للأرض التى أقامت عليها الحكومة نادى الشباب.

- تصور يا حمدى، سألت عن بيتكم فى درب العمدة..

الحاج حسن وابنه حمدى يضحكان.. يقول العمدة بعدها :

- غلطتنا، لم نَدْعُكَ ولا مرة إلى بيتنا..

أردف بكثير من التأكد :

- أكيد ولا صلاح إمام يعرفه..

الحاج حسن بعد برهة حكَّ فيها ذقنه يقول :

- نعم بالتأكيد..

ثم عقب:

- عندما ألغيت العمودية، وكبر الأولاد، رأيت أن أستقل وحدى، تركت بيت العائلة لأخى الأصغر سيد، عندما تزوج أخت صلاح إمام أقام فيه، وأقمت بهذا البيت..

قال حمدى:

- بيت عمي سيد أول بيت فى درب العمدة..

قال كامل وهو يستعيد بعض ما فى الذاكرة:

- لم يكن سؤالى هناك من فراغ، أتذكر أننا عندما كنا نزور خالتى، نأتى لنلعب أنا وأولاد خالتى عند حنفية المياه، كنت أرى جمهرة من الناس تجلس أمام الدرب، وكانت خالاتى تحذرنا من الخفر..

قال الحاج حسن وهو يمسح رأسه:

- قبل إلغاء العمودية.. كان أهل البلد يقضون أمسياتهم عندنا فى المندرة، أو على المصاطب خارجها.

تناولا الشاى، تبادلا الأحاديث عن الزمن القديم والزمن الحاضر، وعندما تحدث كامل معه فى شأن الأوراق التى بحوزته، ثم قدمها له، نظر إليها مليًا وقال:

- لم يعد لها لزوم.. مزقها، أشعل فيها النار.. صاحبك صلاح إمام لم يعد يهتم بالعمل السياسى..

كمن تدارك شيئًا، نظر إليه وقال:

- وأنت، هل نويت الابتعاد أنت الآخر.

على الفور قال كامل:

- أنا مسافر للعمل بالخارج..

ثم استطرد ضاحكًا:

- السياسة لن توجد لى شقة، لن تزوجنى..

ضاحكًا قال الحاج حسن:

- تزوج السياسة.. قد يسعدك الحظ وتقفز..

وضع الطاقية فوق رأسه واستطرد:

- سعادة المهندس أمين الشباب، بعدما اتهمه أصحاب المحال بفرض إتاوات لتعليق لافتات من الزجاج مضيئة تحمل الشعارات إياها، واستكثروا المبالغ التى جمعها، شكوه إلى الأمانة العامة.. أتعرف النتيجة؟.

قال كامل مندهشًا:

- لا أعرف..

- قفز.. قفز إلى الأمانة العامة، وتزوج بنت أمين الدعوة والفكر.. تصور!!

قال كامل:

- كنت أشبهه بالإمبراطور، لا يأتيه الباطل من أى ناحية من النواحى..

قال مُربتاً على كتف كامل المجاور له:

- أنت على نياتك.. نحن فى زمن من نظنه موسى يطلع فرعون..

ثم فتح المظروف وتفحص ما به بنظرة سريعة، قال:

- كلها بتكاليف وجهد الأخ صلاح إمام، أعطها له..

قال كامل بعد أن هم واقفًا:

- على كل حال، ألف سلامة يا حاج..

ثم صافح حمدى مردفًا:

- آراكما على خير إن شاء الله..

قال الحاج حسن:

- لا تحرمنا أخبارك . .

وقال حمدى وهو يودعه حتى باب البيت :

- لا تعتبرها فترة وانقضت ، راسلنى وأراسلك يا أستاذ كامل . .

هز كامل رأسه وقال :

- إن شاء الله . .

مشى كامل ، خرج من الدرب ، استدار ، وقف يتطلع إليه متأملاً ، يشهد آثار باب قديم عند مدخله ، لم يبق منه إلا الحلق ، أما الضلف فقد انتزعت . . بدا له الدرب تعتريه التعاريج فلا يبين له نهاية ، خمن أنه من الدروب التي كان يقفز إليها من فوق الأسطح صغيراً . . استدار على عقبيه متجهاً إلى بيت صلاح إمام . .

## ٣

صلاح إمام ، صديق العمر ، الدراسة ، الفقر والحاجة ، قزقزة اللب أبو شطة ، وركل الدومة بعد نحتها حتى البيت ، صديق الأيام المرة ، والأحلام المستحيلة . . بداية اللقاء لحظة من أسوأ ما يمر بصبية صغار .

الأولى الإعدادية ، الطرد من المدرسة لعدم سداد المصروفات ، شهادة الفقر من الشئون الاجتماعية ترد الكيان ، لا أحد يعرف من التلاميذ ، السر فى مكتب سكرتير المدرسة ، قال للمدرس وهو يمر بالفصول عندما رأى كامل وصلاح يحملان كتبهما ويقفان أمام باب الفصل :

- أدخلهما ، سددا المصروفات .

حملاها معروفًا للسكرتير ، وقراه وزادا فى احترامه ، لكنه بعدها بأيام دخل الفصل وقال :

- كامل حنفي وصلاح إمام . .

وقفا تلبية للنداء :

- تعاليا إلى حجرتي بعد جرس المرواح . .

يا أرض انشقي ، ويا سماء انقضي ، هل اكتشف خطأ في شهادة الفقر ؟ هل يحول بينهما والدخول من باب المدرسة إلا بعد سدادها نقدا ؟ . هل ارتكبا جرما ما ؟ ، الوقت يمر بطيئًا ثقيلاً ، الذهن مرهق ، الفكر في شتات ، يحثهما المدرس على الانتباه ، لحظات ، يطلب منهما الكف عن السرحان ، ثم يصرخ فيهما ، تدمع عينا كل منهما ، ينتهي اليوم الدراسي بطلوع الروح ، يذهبان في خطوات تتقدم وتتراجع ، ينتفضان ، يتبلل جسداهما بالعرق ، يقفان بباب السكرتير يدفع كل منهما الآخر .

- ادخل يا كامل . .

- لأ . . ادخل أنت الأول يا صلاح . .

لحق بهما آخرون ، تبادلوا النظرات ، وقفوا على يمين ويسار الباب ، خرج السكرتير أحاطت عيناه بكل الموجودين ، قال :

- تعال يا صلاح . .

دخل صلاح ، أغلق خلفه الباب . . يضعون آذانهم على الباب ، لا صوت ، لا طرقعة صفعات على الوجه ، لا صراخ ، لا صوت للسع الخرزانة على الأيدي . . تراجعوا ، صلاح يفتح الباب ويخرج مبتسمًا :

- ادخل يا كامل . .

لم يتبين كامل سر بسمة صلاح ، دخل وإلا استبطأه السكرتير ، هو الآخر خرج مبتسمًا وتحت إبطه لفافة بها قميصان من القماش ، تبادل النظر والابتسام والضحك مع صلاح ، قال صلاح :

- جزاهم الله كل خير ، معونة الشتاء . .

سارا معًا ، تعارفا جيداً ، اكتشفا أنهما يسكنان متجاورين ، صلاح في

أرض الحديقة، وكامل فى البلدة القديمة.. قال كامل:

- من أسماها أرض الحديقة؟ كانت ملكًا للعمدة..

ضحك صلاح إمام وقال:

- والله ما أعرف.. أبى اشتراها وبنينا حجرتين وحمامًا ومطبخًا بالداخل، أقمنا سوراً على الواجهة وحمدنا الله.. صار لنا بيت..

- أنا أعيش مع أسرتى فى بيت جدى، تركنا شقتنا فى الساحل بعد أن ترك أبى العمل هناك، يعمل حاليا بالقرب من هنا..

- يعنى أصلكم من البلدة..

ضحك كامل وقال:

- تعتبر بلدة أمى، أما أبى فبلدته الدقهلية..

نظر صلاح باندهاش:

- ومن لمّ الشامى على المغربى على رأى المثل..؟

- يقول أبى أنه جاء ماشياً، يعد الفلنكات، يعمل أى عمل ليوم أو يومين، يوفر احتياجاته ثم يعاود المشى حتى وصل، تعرّف على خالى، ثم تزوج أمى..

ضحك صلاح قائلاً:

- أكان خالك وقتها..؟

ضحك كامل ولم يرد، وقفا وكامل يقول مشيراً بامتداد ذراعه:

- بيتنا من هنا، آخر هذه الحارة تجد الشارع الدائرى ثم بيتنا إلى جوار سيدى عباس.. أمسك صلاح إمام بيد كامل وقال:

- تعال معى أعرفك بيتى كى تمر علىّ فى الصباح ونذهب معاً إلى المدرسة..

بداية خطها القدر، لم يشأ أى منهما أن يظهر فقره، عوزه، منذ بدء الدراسة لا فرق بينهما ولا بينهما وبين غيرهما من التلاميذ، بداية

جمعت بين صبيين فقيرين..

ضغط كامل جرس الباب، فتحت مها الباب، أفسحت له:

- ادخل يا كامل..

- صلاح موجود..؟

- موجود.. ادخل..

جلس كامل فى الأنتريه بالصالة كالمعتاد، تلفت يمنة ويسرة، جلست مها قائلة:

- تشرب شاى..

لاحظ دموعًا فى عينيها، أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى قال:

- أكيد بينكما مشكلة.. أرى فى دموعك مشكلة..

مسحت دموعها بكف يدها وقالت:

- أخوك تعبنى يا كامل..

- تعبك.. تعبك تانى..

- مشاكلنا ما لها نهاية، كل يوم مشكلة.. مشكلة مع أمه وأخواته، مشكلة مرتبى ومرتبه، مشكلة الدَّيَّانة، أنا ذنبى إيه.. يستلف ويصرف على أمه وأخواته وأنا أتلقى السخرية من الناس.. كان المفروض ينتظر لما يخلّص التزاماته نحو أهله، وبعدين يتزوجنى.. إنما الوضع حاليًا غير مريح بالمرة..

- مع مرور الوقت، المشاكل تكبر وتتعقد، والحل فى رأيك يا مها؟

تلفتت حولها كمن يهرب من شر، دمعت عيناها مرة أخرى:

- الحل بيد الله.. الله يحلها بطريقته..

يشعر كامل بالألم، قصة الحب، الحيل والألاعيب للحصول على موافقة الأستاذ سلامة، عراك وخلافات ومشاكل ليلة الحنة، وآخرتها الفشل.. قال محذراً ومهدئاً:

- أرجوك الصبر يا مها، أبوك ينتظر أية غلطة ليشفى غليله.. راح مفعول العزومة..

- حاولت.. وصبرت، أمى تصبرنى، أنا لى طاقة قربت تخلص.. من نص ساعة كان صوتنا خارجاً للشارع.. أنا فى غليان ولا اهتم وخرج..

وقبل أن يسأل أردفت:

- أكيد عند أمه، يقعد، يضحك، يفرفش وأنا هنا أتحرق.. أموت.. أنتحر..

وقفت قائلة:

- أعمل لك الشاى..

رفض كامل وتأهب للانصراف، أوقفته بيدها:

- زمانه راجع.. كل يوم يطلّ عليهم ويرجع..

اتجهت إلى المطبخ، رن جرس الباب.. قام كامل وفتحه:

دخل صلاح محييا كامل، رد له التحية، جلسا متجاورين، قال صلاح:

- سألانى عليك حسن وصابر.. يحضران بعد قليل..

حسن فخرى، وصابر حفنى، صلاح إمام، كامل حنفى، عُرفوا فى الحى وأرض الحديقة، وأطلق عليهم مجتمع الرجال، الحاج سيد، إبراهيم البقال، سمير النجار، وليم المكوجى، إبراهيم موظف السكة الحديد، سعد كمسارى الترماى، وعبدالمنعم الباشجاويش فى الجيش، أطلقوا عليهم اسم «الفرسان الأربعة»..

حين بدأ الحاج إمام استكمال بناء واجهة البيت، هدّ حائط الواجهة المؤقت، قام العمال بحفر الأساس، كانت الامتحانات تقترب، والحرارة تغزو الجو، اعتاد كامل وصلاح الاستذكار فى نفس المكان بعد صب الأعمدة الخرسانية، يضعان الكراسى فوق التراب ومنضدة صغيرة

بينهما ولمبة نمرة ١٠، تعد أم صلاح لهما الشاى، تدعو لهما بالنجاح، تعرف قصة معونة الشتاء،

- ربنا ينجحكم، هو عالم بالحال..

انضم إليهما صابر حفنى، بدأ يشاركهما الاستذكار، بدا اختلاف القدرات، يضيع صابر الوقت لبطئه فى الفهم، تعارفوا تمام التعارف، ثلاثتهم فقراء، كل منهم أكبر إخوته، لكامل أخ وحيد، ولصلاح أخوان وأختان، ولصابر أختان وثلاثة إخوة، كل منهم يقدر معاناة أسرته ويحاول قدر الإمكان ألا يثقل عليها، مصروف كل منهم نصف قرش يوميا، لكل منهم قميص وبنطلون وحذاء طول العام الدراسى، لم يعرف أحدهم ترف حمل حقيبة جلدية، يسعدهم الحصول على جلدة كشكول من البلاستيك يضعون داخلها كتبهم وكراساتهم، إذا بلى الحذاء أصلح، تعلموا كى ملابسهم، يبخونها بالماء ويفردونها تحت المراتب، تبدو فى الصباح مكوية، اعتاد كل منهم أن يعود من المدرسة فيغسل جوربه وينشره ليجف، إذا تمزق القميص أو البنطلون رتقته الأم، شظف العيش يتبدى فى الطعام، تذوق اللحم كل شهر مرة، شراء الفاكهة عندما تغزو الأسواق وينخفض سعرها لأدنى حد، القلم الحبر والقلم الرصاص والمسطرة والأستيكة والبرجل والمنقلة والمثلث، ما يفقد منها لا يعوض، تعريفه : مليمان لب أبو شطة، دومة بمليم، ومليمان لبعد الظهر، أو ادخارهما لتعويض شىء ضاع من أدوات المدرسة، أو لجمعهما آخر الشهر لدخول سينما روى والذهاب إليها سيراً على الأقدام..

وضعت مها الشاى، أخذت كوبها ولاذت بحجرة النوم..

سأل كامل :

- شكل مها يقول فيه حاجة..

- أكيد حكت لك..

- جئت قبلك بخمس دقائق..

نظر صلاح فى عينى كامل، قال كامل رداً على نظرته المتشككة:

- جئت وقامت تعمل الشاى..

قال صلاح متبرماً:

- أنا زهقت.. أقل حاجة تعمل بسببها مشكلة.. واحد سأل عنى، فيها حاجة..

ردت مها من حجرة النوم:

- سأل عليك ولا سأل على فلوسه..

- سيان.. أما أرجع يجينى..

خرجت إلى الصالة، وقفت متحفزة:

- اسمع يا ابن الناس، مر عليهم واحداً واحداً وقل لهم إنك قاعد عند أمك.. أنا خلاص تعبت..

قال صلاح بغضب:

- كل الناس مديونة.. وكل الناس بتشترى شكك، وكل الناس..

قال كامل مهدئًا الموقف:

- اقعدى يا مها.. اهدأ يا صلاح.. الصراخ لا يحل مشكلة.. أهالينا مروا بنفس المشكلة، والدى يستلف ويسدد، لكن عنده حرص فى المصاريف، يعنى يستلف لضرورة ملحة.. شيء طارئ..

قالت مها متهكمة:

- صلاح يستلف لاجل يشترى بنطلونات وقمصان لإخوته، يقدر يقول ضرورة ملحة، لا وألف لا .. عند إخوته بدل البنطلون ثلاثة وأربعة، بدل القميص خمسة وستة.. يعنى افتراء.. أنامدركة هدفهم.. ومستعدة لتحقيقه لهم..

قال صلاح ساخراً:

- ما هدفهم يا ناصحة..

- أيوه.. هدفهم ظهر من ليلة الفرح.. فاكر.. تحب أفكرك ؟!

موقف غريب لا ينساه كامل، وتصرف غبى أحمق، الكل يشعر بالسعادة، أهل مها، أقرباؤها وزميلاتها فى العمل، كامل وصابر وحسن، الأنوار تتلألأ مستبشرة، البيت خلية نحل، هرج وضوضاء، ثلاث حلل فصلها كامل وصلاح وصابر عند نفس الترزى، اللون واحد، الموديل واحد، نفس تفصيلة القمصان، شكل ولون الكرافتات والأحذية.. لفت مظهرهم كل الأنظار، كل المعازيم، ضج الأستاذ سلامة من كثرة الأسئلة:

- هل هم إخوة؟

يرد على كل منهم قائلاً:

- أصدقاء، لكن علاقتهم أقوى من الإخوة..

تزينت مها، جلست فى الكوشة المعدة داخل إحدى حجرات البيت، حولها صديقاتها وقريباتها، الطبل والرقص والزغاريد، الفرسان الأربعة يقفون فى الصالة، منهم من يستقبل الضيوف، منهم من يحمل أكواب الشربات، منهم من يحمل أطباق الجاتوه، صلاح فى الصالة يروح ويجىء، يبدو عليه إرهاق الفكر.. اقترب منه حسن فخرى وسأله:

- مالك.. لونك مخطوف..

- ربنا يعدّى الليلة على خير..

كأنه كان يحس، يشعر بما تحمله الدقائق، الساعات القادمة، يتلفت يمنة ويسرة..

يقترب صابر حفنى ويهمس له:

- فكّها تعمر..

ما توقعه وقع.. ارتفع صراخ، تبودلت شتائم، وانتشر هرج ومرج، تساؤلات واستفسارات معركة بين أهل العريس وأهل العروس.. نساء تشتم نساء، بنات يتهجمن على بنات، وصل سمع صلاح أن أمه وإخوته بصقن فى وجه العروس.. خطفوا تاجها، مزقوا طرحتها..

انتفض فى مكانه، فوجئ صابر حفنى - كان قريبا منه - بصفعة قوية رنت على وجهه مع صرخة:

- خذ أولاد... واذهب بهم من هنا..

وضع صابر يده على خده، دفعه حسن فخرى نحو حجرة العروس، محاولاً هدهدة غضبه:

- تصرف بحكمة.. بعدين الليلة..

شد صابر أم صلاح من يدها:

- قومى يا أم صلاح، قومى.. الفرح لأصحابه، ابنك باع نفسه لهم.. قومى..

وجذب بناتها واحدة واحدة، دفع بهن إلى خارج البيت، مشى معهن يشتم ويلعن أهل مها، تؤكد أم صلاح على كلامه وتزيد فى الشتائم، وصل بهن إلى البيت، رمقته أم صلاح بطرف عينيها قائلة:

- طبعا انت راجع لهم..

ضرب صدره بيده:

- أنا أرجع لناس غجر.. النوم أفضل..

اطمأن صابر حفنى بعد دخولهم البيت، وإغلاق الباب، اتجه إلى نهاية الشارع وانعطف عائداً من طريق آخر، قابله فى الطريق أخو صلاح، توقع سخرية أم صلاح منه وذلك فى مقتبل الأيام..

خيم الصفاء على الفرح بعد انصراف أسرة صلاح، قبل أن يعود صابر

أنَّب حسن فخرى وكامل صلاحًا على تهوره وتصرفه الغبى، قال صلاح:

- تصرفت من غير وعى..

- لازم الواحد يضبط أعصابه..

بدأ الغضب يتملك صلاح ثانية:

- ضربته وانتهى الأمر..

قال كامل:

- الحمد لله، المهم تعتذر لصابر..

تعانق صابر وصلاح، والدموع تنهمر من عينيهما ، تبادلا القبلات قال صابر منهيًا الموقف:

- إن شاء الله أردها لك يوم فرحى..

رن جرس الباب، انضم إليهم حسن فخرى وصابر حفنى، نظر كامل إلى صابر وكأنه يراه يضع يده على خده يتحسس موضع الصفعة..

ضرب صابر حفنى كاملاً على كتفه مداعبا:

- ظهرت أخيرا..

لم يقل كامل لأى منهم قصة عشقه لعزيزة، وأنه يقضى فى أحضانها أمسياته إذا لم يكن فى المقر، علل غيابه بانشغاله:

- كنت أعد أوراق السفر..

تطلعوا إليه فى دهشة، تتابعوا تعبيراً عن دهشتهم صلاح فصابر وحسن:

- خلاص نويت.. سبقتنى..

- يا خبيث.. حصلت على عقد..

- مفاجأة يا كامل.. فعلاً مفاجأة، يا ترى سارة أو غير سارة..

أمسك كامل بخيط كلمة حسن فخرى وقال:

- حقيقى، حتى الآن غير سارة نفسيًّا على الأقل.. فى تصورى

الغربة بحر متلاطم، أن تجد نفسك في بلد غريب، هواء لم تعتده، أناس تتعرف إليهم لأول مرة..

قال صلاح:

- الاعتياد طبع.. فترة قصيرة وتعتاد الأمر..

قال صابر حفني موبخًا استهانة صلاح:

- يا قلبك يا أخي.. أنا أقدر أبعد عن أمي وأبي وإخوتي.. حتى والجيران..

ثم تدارك ما قال متجها إلى كامل:

- أنت ممكن، قلبك جامد.. كلنا وقعنا في الحب إلا أنت..

ابتسم كامل وقال في نفسه «وما خفي كان أعظم»

نسيت مها مشكلتها، اندمجت في الإنصات ثم سألت كاملاً:

- صحيح يا كامل عمرك ما حبيت..

قال كامل بحرص شديد:

- حبيت طبعًا.. أسرتي وربنا والشغل..

قالت في إصرار على سماع الإجابة:

- صحيح جاوب بجد..

رفع عينيه نحو المصباح المتدلي من السقف، قال في بطء:

- وأنا صغير تعلقت بفتاة تدعى مريم، طبعا حب من غير أمل..

قال صابر:

- ما أول شيء لفت نظرك فيها؟

- أول شيء لفت نظري، شعرها الطويل، وتسريحة ذيل الحصان..

قال حسن فخري ضاحكًا:

- تحب البنت لثلاث شعرها، ولون عينيها،..

وانفجر في الضحك، بصوت مضطرب قال:

- ونمنمة حنكها..

عقب صابر حفنى:

- فلاح ابن فلاح، حتى حبه فلاحى..

قالت مها لكامل:

- على فكرة، أنا أعرف عروسة لك..

صاح صابر حفنى:

- إياك.. كامل إنسان بلا قلب..

ردت عليه، وهى تخرج لسانها لتغيظه:

- إنسان بلا قلب أفضل من إنسان هوائى..

- أشكرك يا مها..

ثم اتجه بوجهه لصلاح:

- زوجتك منحازة.. المبدأ عدم الانحياز..

قالت مها مؤكدة رأيها:

- بصراحة.. أنا أفضل إنسانا بقلب جامد لأنه لما يحب يكون صادقاً فى عواطفه..

قال صابر لمها مغيراً دفة الحديث، يدرك أنها لن تتركه حتى يتوجع قلبها من الضحك:

- عندكم شاى وسكر..

رد صلاح:

- عندنا الماء والبراد والنار..

ضحك صابر، اتجه نحو باب الشقة، هتف صلاح:

- بالذمة إنت مجنون..

- لا مجنون ولا حاجة، أوصل بيتنا وأقول لأم صابر صاحبى صلاح يحتاج شاى وسكر..

مد صابر يده على كالون الباب، نهض صلاح وأمسك بذراعه، دفعه إلى مكان جلوسه:

- اتهبب اقعد، أمرى لله يمكن خلّفتك ونسيتك..

قامت مها، حملت صينية الشاى، نظرت إلى حسن وسألته:

- قهوة يا أستاذ حسن..

قال صابر مغتاظًا:

- نفسى أفهم، كلنا تنادينا بأسمائنا، حسن بالذات تناديه يا أستاذ.. أفهم..

قالت مها:

- تحب تعرف السبب؟

- طبعًا..

- إنسان محترم..

واستدركت مستغرقة فى الضحك:

- لا مؤاخذة يا كامل..جرنى للغلط..

عادت بعد أن وضعت الصينية بالمطبخ وقالت:

- أنت يا صابر وكامل إخوتى، يمكن بسبب رؤيتى لكما دائمًا مع صلاح أيام الخطوبة.. والأستاذ حسن زارنا مع صلاح مرات تعد على الأصابع.

سألت حسن فخرى مرة أخرى:

- قهوة..

قال حسن فخرى:

- لو سمحت..

على الفور قالت لصابر:

- تعرف ترد بالأسلوب..

غطى صوت صابر على صوتها قائلاً:
- وأنا قهوة.. والله لأتعبك.. وكامل قهوة.. وإنت يا صلاح..
قال صلاح ضاحكًا:
- قهوة طبعًا..
قال صابر:
- جميل، قهوة مضبوط للأستاذ حسن..
ومطَّ كلمة أستاذ ثم أردف:
- وقهوة على الريحة لى، وقهوة سكر زيادة لكامل.. وطبعا عارفه قهوة صلاح..
قالت وهى تتجه إلى المطبخ:
- تعبكم راحة يا أستاذ صابر..
ومطت كلمة أستاذ مثله تمامًا..

دوت فى أذنى كامل كلمة مها «إخوتى»، الأخوة بند غير مرتبط فى صداقتهم بأم أو أب، أو أرض، بيت أو سقف، الأخوة التى دفعت حسن فخرى للبكاء بين يدى صلاح إمام يوم امتنع عن الذهاب إلى المدرسة بعد وفاة أبيه، خرج للعمل ليساعد فى إعالة الأسرة، واقترب موعد الامتحان، نجح كامل فى شرح حالته لإدارة المدرسة فلم تقرر فصله، أخبر كامل صديقيه حسن فخرى وصابر حفنى رفض صلاح الذهاب إلى المدرسة وتحرير استمارته لدخول امتحان الدبلوم، قال صلاح متضايقًا:
- هذا جنون، أنا لم أفتح كتابا من أول السنة.. رسوبى أكيد، ما الداعى إذن؟؟
قال كامل:
- أنا أساعدك..
عقب حسن فخرى:

- نساعدك كلنا.. المهم تدخل الامتحان، لا تفقد الأمل، أمامك شهر كامل..

أردف كامل قائلاً:

- لا أهمية للكتب، أنا عملت ملخصات لكل المواد، يمكن ربنا يساعدك..

أمام عناد صلاح بكى حسن فخرى لأول مرة، لم يبك يوم وفاة أمه أو موت أبيه أثناء زيارته للأراضى المقدسة، كان صغيراً كفله عمه الأصغر حتى حصل على الإعدادية، ثم جاء للإقامة مع عمه الأكبر ودخل المدرسة الثانوية.. بكى وتهدج صوته بالأسى والحزن، قال مغمغماً:

- يعنى تفرح الناس فينا.. عيونهم علينا، فشلك يعنى فشلنا كلنا.. اسمع يا ابنى الكلام..

قبل نهاية السنة الدراسية الماضية، انتووا زيارة صديق لهم مرض واحتجز فى مستشفى الحميات، جلسوا يتدارسون كيفية الذهاب، ما معهم من نقود لا يكفى تكاليف المواصلات إلا لاثنين فقط، اقترح حسن ذهاب صابر إلى عبدالفتاح جارهم فى السكن واستئذانه فى أخذ دراجته لقضاء مشوار، ركب كامل خلف حسن فخرى لمهارته فى قيادتها، قبل نهاية الشارع استوقفهما أبو صفوت قائلاً:

- لماذا افترقتم يا أستاذ حسن؟

فوجئ كامل بحسن يرد فى ثقة:

- سنجتمع ثانية يا عم أبو صفوت..

وانطلق، قال لكامل بعدما ابتعدا عن الشارع:

- الرجل واقف يتابعنا، من أول ما وقفنا نتفق..

صاح صلاح إمام فى كامل:

- القهوة بردت، وعمرها ما تسخن..

هز كامل رأسه، تناول فنجان القهوة وقال:

- أحب شربها باردة..

الأحاديث أطراف خيوط متشابكة، تتلاقى وتفترق، يخرجون من حديث إلى آخر، ومن موضوع إلى موضوع غيره، الضحكات غيبت سحابة الحزن التى خيمت بين مها وصلاح، يشرد كامل ويعود، يشرد ويعود، يحز فى نفسه الابتعاد عن هذا الجو الأخوى، وتلك الأرواح التى عانقها وسعد بها حتى لحظته..

اقتحم آذانهم صوت ميكروفون الجامع الكبير غرب الناحية، نقل الصوت إليهم «توفى إلى رحمة الله الحاج محمد الفتوة، توفى إلى رحمة الله الحاج محمد الفتوة...».

ضاع الصوت وكامل يقول لصلاح:

- الفتوة، أتذكره!!

قال صلاح إمام:

- وهل من السهل نسيانه، شخصية من أغرب الشخصيات..

يحكى صلاح قصة ذهابه إلى محمد الفتوة بصحبة كامل عندما عرف أنه شيد عمارة فى أرضه التى باعها بعد تقسيمها، اقتربا منه وسأل عن صاحب العمارة، قال الرجل وكان راقداً بجلبابه الأزرق أمام بوابتها الحديدية أنه حارسها، سأل عن طلباتهما، أعلنت رغبتى فى استئجار شقة، قال الرجل تدفع عشرة آلاف جنيه خلو.. صرخت: عشرة آلاف، معقول.. طلب كامل ملاقاة صاحب العمارة تحجج الرجل بأنه على سفر وسوف يغيب..

قال صلاح بعد لحظة:

- ليس هو، محمد الأخ الأصغر، عيلة كلها بخل..

قام حسن فخرى وتبعه صابر وكامل وقال:

- الوقت سرقنا..

قالت مها لكامل:

- سنراك قبل السفر..

- يمكن..

قاطعته مها:

- ضروري..

قال صلاح وهم يهبطون الدرج:

- يقدر يسافر من غير ما نودعه..

عقب حسن فخرى من مدخل البيت:

- قال لك الخلاصة..

قال صابر حفنى وهم يقتربون من ناصية الشارع:

- أعتقد يصعب النوم، كلها ساعة والنهار يطلع.. ما رأيكم فى صلاة الفجر؟

وبعد بضع خطوات أضاف:

- لنُصلِّ فى مسجد الرحمة..

لاحظ صابر انصرافهما عنه وانهماكهما فى حديث ثنائى عن مشاكل صلاح ومها، تقدمهما بخطواته، وجدا نفسيهما أمام مسجد الرحمة، نظرا بدهشة كيف لم يشعرا بالمشوار؟؟

## ٤

اليوم الأخير - قبل السفر - ذهب صابر حفنى إلى بيت كامل، وجده بملابس الخروج، كان عائداً لتوه من لقاء سماح الأخير، يبدو عليه الشرود، سأل صابر:

- إلى أين ؟
- إلى حيث أجد بعض الهواء.. الحر يخنقني..
- ليس أجمل من سينما مكيفة..
- الكورنيش تكييف طبيعي..
عقب صابر منتشيًا :
- والله فكرة..
سأل كامل عن صلاح إمام وحسن فكرى، رد صابر :
- يعود صلاح فى العاشرة من عمله، وحسن تقريبًا فى نفس الموعد.
جلسا فوق مقعد رخامى، ظهراهما للطريق، أمامهما السور الحديدى، ثم حافة النهر المنحدرة، بعدها أمواج المياه يحركها الهواء، الهواء خفيف منعش متجدد، الصمت يلفهما، كامل يتابع الشمس وهى تغوص فى الأفق، حمراء قانية، صابر يتابع صندلاً كل رجاله فى حركة، قفز ونداء، يتبادلون الصياح مع أحدهم على الشاطئ يمسك حبلاً متصلاً بالصندل.. توقف الصندل على مبعدة أمتار من البر، أوقف أحدهم لوحًا طويلاً من الخشب، أماله حتى رسا على البر، يحاول الأول ربط الحبل فى السور الحديدى، يبدأ العمال فى الانتقال من الصندل إلى البر، اختفت الشمس تماما، السماء رمادية تميل على مهل إلى اكتساب العتمة، بدأ كامل الحديث :
- ما أخبارك مع نوال ؟
ارتكز صابر براحتيه على المقعد الرخامى يمنة ويسرة، أجرى قدميه فوق بعض الحصى فى الأرض فأحدثت صوتًا، رد :
- كنت معها فى السينما، حفلة ٣، سألتنى عنك..
- فيها الخير..
ابتسم كامل متأملاً، سبحان مغير الأحوال، أتراها نسيت موقفها

الغبى عند بدء علاقتها بصابر، فوجئا وهما يتمشيان فى الشارع الجديد أمام بلوكات المساكن الشعبية بفتاة تقترب منهما دست فى يدى صابر ورقة مطوية وانصرفت على عجل.. ضم صابر قبضته عليها وكامل ينظر إليه فى تعجب.. قال صابر:

- هيا بنا للبيت..

رد كامل فى سخرية:

- «البلزر» علقت البنت..

فض صابر قبضته وقرأ الورقة، تناولها كامل وقرأها «من فضلك، إنت عاوز منى منى أنا أنا إيه».. تبادلا النظرات، كاد يلقى بها، همَّ صابر باختطافها من يده، كادت تتمزق، قال كامل متضايقًا:

- البداية بفزورة..

وقفا فى الشرفة، يرى كامل ما انتاب صديقه من قلق، توتر، يدخل الحجرة، يعود، يجوب الشارع بعينيه، يسحب كرسيًّا يجلس عليه، ينهض ويقدم الكرسى لكامل، قال كامل:

- مالك.. اهمد..

- بماذا أرد عليها..

- فكر فى عبارات موجزة ملغومة أنت الآخر..

- أطيرها من يدى..

- تفتكر إنها وقعت خلاص..

أخذ صابر الورقة من كامل بهدوء، قال وهو يعيد قراءتها:

- بدون شك..

فى الليل اجتمع المجلس، تبادلوا قراءة الورقة، والرأى..

- أكتب لها «عايز أنضم للستة العشاق»..

قالها حسن فخرى وهو يستعرض ما سمعه عن علاقاتها المتعددة مع

الشباب من المساكن أو من أرض الحديقة أو من البلدة القديمة. تخيلها تقضى كل يوم مع أحدهم وبالدور، تخيلها تدون فى مفكرة المواعيد السبت مع فلان، الأحد مع فلان..

أخرجه من تخيلاته كامل وهو يقول:

- بنت ملعب.. لا ترد ودعها تتفلق..

- نسمع رأى صلاح..

علق حسن فخرى ساخراً:

- رأيك يارومانسى..

اضطجع صلاح، أراح ظهره على مسند الكنبة، خلع حذاءه، طوى ساقيه، قال:

- أشرب الشاى، أدخن سيجارة، أقول رأيى..

غزت الراحة صدر صابر، صلاح سيعطيه الحل الأمثل، زعق فى أمه:

- الشاى يا أم صابر..

جاء صوتها من الصالة:

- حاضر يا ابنى..

حمدت ربها، خشيت أن يطالبها ببعض النقود، تدرك من التكرار أن اجتماعهم غالبا ما يسفر عن اتفاق للذهاب إلى السينما، بعد الاتفاق يلتفون حولها فى رجاء وتوسل وتحايل، تغزوها مشاعر الأم، تقول ضاحكة:

- طلباتكم..

يرد أى منهم:

- بريزة نكمل ثمن التذاكر..

تخرج كيس نقودها من صدرها، تمنحهم البريزة، ثم تمنحهم خمسة قروش قائلة:

- اشربوا حاجه ساقعة..

غالبا ما يقبل حسن فخرى يدها، يقول بعدها:

- عشت لنا يا أجمل أم..

معزة خاصة تحملها أم صابر لحسن فخرى، تشعر بمسئوليتها عنه كأم منذ أخبرها صابر بوفاة أبويه..

قدمت أم صابر وبين يديها صينية الشاى، وضعتها على الترابيزة الصغيرة تحت النافذة المطلة على المنور، انصرفت قائلة:

- بالهناء والشفاء..

أخرج صابر علبة سجائره، قدم واحدة لكامل، أخرى لحسن واثنتين لصلاح:

- اثنتان يا أبو صلاح..

ينظر حسن فخرى إلى صلاح متلمظًا، يتوقع كما يحدث أحيانًا أن يبدى رأيًا لا يقدم ولا يؤخر، أو رأيًا مائعًا، أو رأيًا يزيد الموضوع غموضًا..

يستحث صابر صلاحاً بالتطلع الدائم إلى وجهه، وتحديداً شفتيه، يود لو يصرخ فيه قائلاً:

- انطق يا بجم..

تنحنح صلاح إمام ، سعل بعد أن تابع سحابة الدخان تأخذ مساراً كدخان الطائرة النفاثة التى طالما شاهدها فى الجو، قال:

- اكتب لها أغنية جواب لعبدالحليم..

كما توقع حسن فخرى جاء الرأى مائعًا، قام من فوره، انهال بكفيه ضربًا على كتفى وصدر صلاح، عقب وهو يعود لمجلسه:

- شاى وسجاير والآخر هيافة رأى..

بعد أخذ ورد، موافقة ورفض، تفسير وتوضيح، ارتضى صابر حفنى

برأى صلاح إمام طلب منه أن يكتب الرد بخطه لأنه يحفظ الأغنية عن ظهر قلب.. أحضر كراسة وقلماً وضعها فوق الترابيزة وجلس عاقداً ذراعيه فوق صدره، خرج حسن فخرى، لمحه كامل يلقى التحية بإشارة خفية بيده، أدرك أن بُسبُس جالسة إلى جوار النافذة..

يعرف بُسبُس، يعجب حسن فخرى بها، يتمناها، يحلم بها، ويدرك فى نفس الوقت أن حبه بلا أمل لاختلاف العقيدة، ارتضى الحلم، الرؤية، التأمل، وفى نفسه أمنية أن تكون رفيقة حياته كبُسبُس روحًا خ يفة، ضحكة مرحة، ملامحاً ريفية طبيعية، تخبو مشاعره وتتبدد تأملاته وكامل يلحق به، يقف إلى جواره:

- أتوافق صلاح على رأيه..

- ننتظر النتيجة..

قالها حسن فخرى وهو يعود إلى الداخل..

أفاق كامل من ذكرياته، نظر مليًا إلى الصندل، قال لصابر:

- ما رأيك، ننزل الصندل ونجلس مع الرجل نسلى وحدته..

لم ينتظر رداً، قفز السور الحديدى، مشى فوق لوح الخشب، قال قرب حافة الصندل:

- تسمح لنا نقعد معك ياريس..

- ألف مرحب يا أستاذ..

أشار لصابر بيده، لحق به فرحًا، جلسا على سجادة مصنوعة من بقايا الأقمشة، كرنفال من الألوان الزاهية وإن كانت باهتة..

قدم لهما الرجل الشاى وهما يسألان فى تتابع والرجل يرد:

- .....

لم نسمع عنها إلا بعد عودتنا من رحلتنا، لم نشعر بها، شاهدنا بعض الطائرات فى السماء..

- ......

- نمضى فى البحر ما بين شهرين وثلاثة أشهر، ننتقل من بلد لبلد فى الذهاب، أما فى العودة فغالبًا لا نتوقف إلا لشراء ما ينقصنا من طعام أو شاى وسكر..

- ....

- كلنا، نطبخ الطعام، نرتق الثوب إذا تمزق، نعد الشاى والجوزة، الحياة مدرسة..

- ....

- أولادنا يتعلمون فى المدارس، نقطع من لقمتنا ونصرف عليهم..

شكرا الرجل على حفاوته، تمنيا له الصحة وطول العمر، ودَّعاه وعادا إلى البر، مشيا عائدين والساعة فى معصم كامل تشير إلى العاشرة..

## ٥

اعتزم كامل أن يمد يد العون لصديق العمر صلاح إمام عندما يحصل على أجره، يبعث إليه بشيك بما يتيسر من مال ليسدد ديونه، وتستقر الحياة فى بيته، ما يشغل فكره هل يعلن ما اعتزمه، أم يجعله فى طى الكتمان حتى يتمكن من التنفيذ.

لقيهما صلاح بترحاب، كان ومها يتناولان عشاءهما، جلسا معهما حول الطبلية، قالت مها وهى تنهض لإحضار المزيد من الطعام :

- ربنا يسوقك يا أستاذ حسن..

رن جرس الباب، قال لها صابر وهو يتجه نحو الباب :

- كالقطط، يحضر على الريحة..

قال صلاح ضاحكاً لحسن:

- حماتك تحبك..

رد حسن مبتسمًا:

- طبعاً.. زوج ابنتها..

ثم عقب:

- إذا كانت على قيد الحياة..

فهموا جميعًا تلميحته الذكية، قال صابر حفنى:

- زوجة عمك حية، أتتمنى لها الموت؟

قال حسن:

- من قال أننى سأتزوج ابنة عمى؟ تفكيرك ضحل..

عادت مها بمزيد من أطباق الطعام، قالت وهى تضعها على الطبلية:

- معقول يا صابر، خريج جامعة يتزوج جاهلة..

قال صابر فى اقتضاب:

- رد جميل عمه على الأقل..

- كل شىء بثمنه يا حبيبى..

تناول القليل من الطعام، ثم قام وأردف:

- انتهيت من عشائى وجئت على الفور..

حاول صلاح الضغط عليه، قال:

- أنت تعرفنى، لو كنت جائعًا ما قمت..

لاحظ حسن فخرى ما لا حظه كامل وصابر قبله، المائدة مختلفة عما ألفوه من قبل، لم يزد العشاء فى أى يوم عن جبنة بيضاء وزيتون أسود، وأحيانا يزيد عليها قليل من قطع اللانشون، قال فى خبث:

- فراخ، مكرونة، ملوخية، فاصوليا، عزومة لأجل كامل..

- والحلو جاتوه وحياتك..

قالها صلاح إمام وهو يقضم قطعة كبيرة من ورك الفرخة..

علق حسن:

- يبقى موسم، رغم إن أقرب موسم بعد شهر تقريبًا..

قالت مها ضاحكة:

- الحمد لله.. ربنا فرجها علينا..

وأعقبها صلاح قائلاً:

- محتاج فلوس يا حسن..

قال حسن متحسسًا جيب قميصه:

- أنت تعرف.. جيب السبع....

قاطعه صلاح قائلاً:

- قبضت جمعية ألف جنيه كنت مشتركًا فيها..

قال صابر حفنى بصوت متحشرج والطعام يملأ فمه:

- ألف جنيه..

هتف صلاح بحدة:

- حاسب تزور..

لم يستطع صابر حبس الضحكة، أدار وجهه ناحية «الشوفينيرة»، اندفع ما فى فمه دفعة واحدة، أخرج منديله وجمع فتات الطعام قائلاً وهو يتجه إلى الحمام..

- الحمد لله، كنت فعلا مخنوق..

تناولوا الشاى، مع قطع الجاتوه، يحمد كامل ربه فى سره، لم يقل ما اعتزمه، شعر بإحساس السعادة يغزو صدره، كما غزا صدورهم جميعًا..

قال صلاح بعدما تجشأ وحمد الله:

- الحقيقة يا جماعة، لا جمعية ولا حاجة، أنا لى أكثر من ستة شهور أقوم بعمل مضاعف، زميلى استقال، فوجئت بمكافأة قررتها الإدارة..

بالإضافة لأسبوعين مصيف مجاناً..

هتفت مها فرحة:

- صحيح يا صلاح.. نسافر المصيف..

- إن شاء الله يا حبيبتي..

قالت وهي تمسك ذراعيه بيديها:

- قلها تاني، خليها تخرم وداني..

أعاد صلاح ما قاله بصياح في أذنها المجاورة لفمه، ثم خطف قبلة سريعة، قال مبتسماً:

- الغريب فعلا، أنكم لا تشعرون بالغيرة.. ولا واحد فيكم اتنحرر وفكر يتزوج..

ثم وضع ذراعه فوق كتفي مها وقال:

- يراودني الحلم مرات عديدة، نحن الأربعة متزوجون، مجتمعون، معنا مرتاتنا..

قاطعته مها:

- عيب يا صلاح، قل زوجاتنا..

أعاد صلاح كلمتها:

- زوجاتنا.. تخيلوا محيط السعادة وقتها!!

قال حسن فخري:

- كل شيء له أوانه..

وعلق كامل:

- أنت تزوجت والحياة رخيصة...

- فرقها بسيط..

قال صابر:

- أنا مستعد أبويا يزوجني، هات لي شقة.. ربنا كرمك بشقة من

غير خلو..

قال صلاح:

- أكيد سفر كامل من أجل الزواج، أنت ما مصيرك؟

قال صابر ضاحكًا:

- أتزوج على روحى..

زار خيال حسن فخرى باب الخلق، ومنه إلى بوابة المتولى، نظر إليها مليًا، كما تمنى، صورة قريبة، وقريبة جدًا من بسبس، قريبة له، نزحت أسرتها من القرية منذ أمد بعيد ، زارهم عدة مرات ، لقى الترحيب والترغيب، اتجهت مشاعره الفياضة نحوها، نبيلة، بسمتها تخايله، صوتها الرقيق يتسرب إلى أذنيه، هندامها، أناقتها، نظ...

خبطه صابر على كتفه هاتفاً:

- نحن هنا..

صاح صلاح إمام:

- أقطع ذراعى إن ما كان غارق فى الحب..

ثم مهدداً برفع يده عاليًا:

- اعترف يا حسن يا فخرى..

قال حسن وهو يشعل سيجارة:

- بنت خالة المرحومة أمى، تعيش فى باب الخلق.. والحقيقة الثانية أنها فى شكل ورسم وجسم بسبس.. ويتيمة الأم مثل حضرتى..

سألته مها بسرعة:

- من بسبس؟

قال صابر:

- زوجة وليم..

ثم اتجه إلى حسن فخرى يحثه على الاستطراد:

– واسمها يا حسن..
– نبيلة.. إن شاء الله أسافر للبلد، أبيع آخر قيراط عندى وأتزوج..
قال كامل:
– معنى كلامك، أن فرحك قريب، وأنى لن أحضره..
علق صابر:
– يمكن تسافر، وترجع بسرعة..
أشاح كامل بيده:
– فأل الله ولا فألك.. على كل حال البركة فى صلاح وصابر، يهمنى أشوفها..
ثم استدرك:
– مستحيل طبعا.. السفر بعد ٣٦ ساعة..
– ممكن أكلمها فى التليفون، وأحدد ميعاد بكرة..
عقب كامل:
– إذا كان ممكنًا، الفسحة على حسابى..
اتفق كامل وحسن على مكان وموعد اللقاء، فكر أن يطرح بعض الاختيارات على حسن لقضاء سهرة لا تنسى، ترك حسن له الاختيار قائلاً:
– أنا أثق فى ذوقك..
هتف صلاح وكأنه فى مظاهرة ملوحاً بيده:
– أيها الأعزب الأوحد، تحرر من عزوبيتك..
ثم قال ساخراً:
– سأكتب لافتة على باب الشقة تقول «ممنوع الدخول لغير المتزوجين»..
قال صابر والعرق يغزو جبهته:

- بسيطة، غدا بإذن الله أخطب نوال..

قال حسن فخرى مغيرا مجرى الحديث:

- يوم السفر أوصلك للمطار..

وقال صابر:

- وأنا طبعًا..

قال صلاح:

- كلنا طبعًا.. كامل أول واحد فينا يسافر، لازم كلنا نوصله..

وافترقوا وكل منهم يتمنى للآخرين نومًا هادئًا وحياة سعيدة أبدية.

## ٦

تشعر سماح باليتم، فقدت برحيل كامل ركنا من أركان حياتها، القلق يلازمها نهاراً، والأرق يقض مضجعها ليلاً، لم يكن ما عاشته مبهجاً، ولا مطمئناً، رغم مظاهر الحياة التى وجدت نفسها فيها ذات يوم قريب، محنتها التى تعرضت لها يوم غابت عن الحى، وتزوجت من عزت، عادت محملة بجروح دامية، شروخ فى النفس، اهتراء فى المشاعر، لكن جراحها سرعان ما التأمت بمجرد أن تقابلت مع كامل - على قدر محنتها وخوض التجربة المرة - استمد شريان الحياة حيويته وتدفق الدم فى عروقهما حينما أعلنا حبهما دون مواربة، لكنه ما لبث أن غرس سكينه فى ذات الركن وقطع الشريان بنفسه عندما أعلنها بقرار السفر..

لا تزال - رغم مضى الوقت - تصحو مبكرة لتقف، تتطلع إلى الشرفة، تتابع مدخل البيت، تراه فى خروجه إلى العمل، فى نفس الموعد بعد الظهر تتابعه آتيـا عند أول الشارع، الصحيفة تحت إبطه،

يمشى فى اعتدال، تظل عيناها عالقتين حتى تكبر الصورة كلما اقترب، تكتشف أنه شخص آخر غير حبيبها، تتألم من ضغط شفتها تحت أسنانها..

ذات صباح تركت أمها نائمة، وقفت بباب البيت، تتطلع إلى البيوت المواجهة، بيت عزوز، مقهى المرحوم المعلم شفيق وقد تغيرت، علقت على واجهتها لافتة «مقهى الشجرة» ابنه الأكبر بنى فوقها شقة بعدما قطع الشجرة، وغير معالمها، فقدت رونقها، كما فقدت زبائنها كبار القوم، سيدى عباس، تنظر إلى المسجد مليًّا ارتبط مولده والاحتفال به بسفر حبيبها كامل، ترى هل تدور السنة ويجيء موعد الاحتفال بمولده ولا يعود حبيبها، وكم احتفالا يا ترى يحدث أثناء غيابه؟؟

تلتفت إلى يمين الشارع، سيارة ملاكى تقترب، وقفت أمامها، أطل منها رأس رجل تعرفه، هتفت:

- عم عبده..

نزل من السيارة، مد يده لها مصافحًا، توقف عزوز أمام باب بيته، خلفه زوجته، ينظران للغريب، وسماح ترحب به:

- أهلاً وسهلاً يا عم عبده..

- الحمد لله أنك بخير يا ابنتى..

تشبثت بيده تدعوه للدخول:

- تفضل يا عم عبده.. تفضل..

مازالت يدها تمسك بيده، استند بظهره إلى السيارة:

- البيه طالبك يا ست سماح..

كاد ريقها يرتد إلى بلعومها من المفاجأة:

- البيه.. أى بيه يا عم عبده؟

- عزت بيه.. زوجك يا ابنتي..

تركت يده والدم يتدفق سريعًا فى شرايينها:

- تانى يا عم عبده.. كفاية، حرام عليه..

عبث بجيوبه، أخرج ورقة مطوية قدمها لها:

- والله خير، عم عبده يحمل لك كل الخير، البيه وعدنى - بعد رفضى المجىء - أن يكتب عليك رسمى، أرسل فى طلب المأذون وينتظرنا.

بحلقت فى الورقة مرات ومرات، تطلعت إلى السماء بعينين مضطربتين، متلهفتين:

- الحمد لله.. الحمد لله..

قال وهو يدعوها للركوب، يفتح باب السيارة، يشير بيده نحو الداخل:

- تعالى معى.. لا ينبغى التأخير..

عادت للداخل، مالت على وجه أمها، قبلتها قائلة:

- بركة دعائك يا حبيبتى..

اعتدلت الأم نصف جالسة:

- خير يا سماح..

- خير يا أمى، عزت يطلبنى حالاً..

- عزت.. عزت أأنا أعرفه؟

- عزت زوجى يا أمى..

انتفضت الأم، هبت واقفة، خرجت فى أثر ابنتها، تحاول الإمساك بها.. ركبت سماح السيارة انطلق عم عبده وهى تصيح لتسمع أمها:

- انتظرينى.. أنا راجعة حالاً..

جلست الأم على الأرض أمام باب البيت مرددة:

- إخص عليك يا سماح.. تاني يا سماح..

كما خرجت أول مرة، الجلباب الأبيض تزينه نقوش بشكل ورود صغيرة حمراء وخضراء وزرقاء، منديل الرأس الأبيض المحلّى بالترتر على حوافه، تطل خصلة شعر سوداء وتفترش جبهتها من اليمين وحتى تختفي آخر الجبهة تحت ربطة المنديل، الشبشب الأسود نصف وجه في المقدمة، مفتوح من جميع جوانبه، تورد خداها بالاحمرار، يبدو تألق في عينيها الحائرتين، تفتر شفتاها عن بسمة لاحظها عم عبده فقال:

- افرحي.. افرحي يا ابنتي.. ربنا يفرحك على طول..

- فرحانة يا عم عبده، أتمنى يكتب عليّ النهاردة وإن شالله يطلقني بكره..

- عيب.. عيب، لو كان الموضوع جواز وطلاق كنت رفضت، أنا لا أقبل المشاركة في الشيء البطّال، إبعدي الأفكار عن دماغك..

نظرت إليه بجانب عينيها، فهم على الفور مغزى النظرة المضطربة القلقة، استطرد:

- كنت في الأول مشغولاً بأسرتي، وكنت أستعد لإتمام زواج نعمة آخر بناتي، خفت أتدخل يغضب مني، ويحصل خلاف، الآن انتهت مشاغلي، ولو اختلفنا كل واحد له طريقه..

- قصدي القضية، السجن..

ابتلع عم عبده ريقه وقال:

- الله يجازيها بنت الحرام، الله يسهّل لها، طلع براءة والحمد لله، القضية ملفقة، وجوده في السجن حطمه، هو نفسه يقول أن عقابه كان بسببك ؛ لأنه ظلمك..

قالت في براءة:

- أنا نسيته تماما ياعم عبده، لا دعيت عليه ولا تمنيت له أي شر..

ساد صمت ثقيل مرهق، تجد نفسها بين شقى رحى تطحنها كما تطحن حبوب الذرة، يطحنها الهم، وقعت بين عزت زوجها وكامل حبيبها، ما موقفها إذا عرف كامل؟ وماذا عن مشاعره الدافئة التى ألقاها بين يديها، هل ستبقى كما هى؟ هل يقتلها؟، قررت بينها وبين نفسها أن تنتظره، سنة، عدة سنوات، فكرت فى شغل وقتها بالعمل، بحثت عن وساطة لتعمل فى المصنع الذى أنشىء بالقرب من البيت، تعمل وتعد نفسها لحين عودته، كادت تنتهى من استخراج الأوراق المطلوبة للتعيين، ساعدها كارم، فى البحث والتنقيب فى السجلات، بعد مشقة استخرج لها شهادة ميلاد، ساعدها فى استخراج بطاقتها الشخصية بعد أن رافقها إلى المصور، حصلت على أول صور فى حياتها، تحتفظ بثلاث منها، تود لو بعثت بإحداها إلى كامل فى غربته.. لكن كيف؟؟

دخلت البيت خلف عم عبده مترددة، هرع إليهما عزت بمقعده المتحرك باكيا، أحاطها من وسطها بذراعيه:

- سامحينى يا سماح، سامحينى أرجوك..

آمراً عم عبده:

- ناد المأذون من الصالون..

أسرع عم عبده إلى الصالون، عاد وفى أعقابه المأذون، جفف عزت دموعه وقال:

- جهز أوراقك يا سيدنا..

تلفت المأذون حواليه وقال:

- يلزمنا شاهد آخر..

قال عزت:

- جهز أوراقك، المحامى فى الطريق..

جلس المأذون على كرسى من كراسى السفرة، أخرج الدفتر أمامه وقال:

- البطاقات لو سمحتم..

دس عزت يده فى الجيب العلوى للجلباب الأبيض الذى يرتديه، أخرج بطاقته ثم توقف:

- عندك بطاقة يا سماح؟

افترت شفتاها عن بسمة وهى تخرج بطاقتها من صدرها ملفوفة فى منديل صغير منقوش:

- جديدة لنج.. أول من يراها أنت..

أخذها من يدها، ضمها إلى بطاقته، قدمهما إلى المأذون، أخرج عم عبده بطاقته هو الآخر وقدمها مصحوبة بضحكة لها صوت لأول مرة، نظر إلى عزت وقال فى خجل:

- لا مؤاخذة يا بيه، أصل.. ثامن مرة يمسك المأذون بطاقتى..

جاء المحامى وأتم المأذون عقد القران، أمسك عزت بيدى سماح وقال:

- أتمنى تنسى الماضى كله..

انفجرت سماح فى البكاء، جلست على مؤخرتها فوق الأرض، دفنت وجهها بين يديها، انحنى المحامى، أمسكها من كتفيها يساعدها على النهوض، دفعها برفق إلى الكرسى، أجلسها قائلا:

- ابك.. ابك حتى تصدقى الحقيقة..

ثم اتجه إلى عزت:

- الموقف صعب، وأكبر من تفكيرها..

صحب عم عبده المأذون حتى الباب ثم عاد، وقف خلف مقعد عزت منشرح الصدر، قال:

- ربُنا يشفيك يا بيه وتعوضها..

- ربُنا يُقدرنى.. أعوضها.. وأعوضك.. وأعوض كل من وقفوا معى فى محنتى..

رفعت سماح رأسها وقالت:

- تعوضنى وأنا مقصرة فى حقك.. هربت من البيت ورجعت لأمى، لكن أنا قلت لعم عبده عمرى ما دعيت عليك، ولا تكلمت عنك مع أى فرد..

قال عزت:

- أنا مقدر كل شىء.. لم تحطمى البيت، أفرغت غضبك فى أشياء تخصك.. علبة المصاغ، الفلوس فى المكتب..

قاطعته:

- هدومى أنا قطعتها كلها..

- أعرف.. وأحتفظ بها..

نظر إلى عم عبده وقال:

- هات علبة المصاغ من المكتب..

سريعًا عاد وكأنه عاد إلى شبابه:

- تفضل..

تناولها عزت، ناولها لسماح مبتسمًا:

- شبكتك يا عروسة..

طلب المحامى الإذن بالانصراف، قال عزت:

- نفذ كل ما قلت لك عليه..

- أمرك..

أمر عم عبده بالذهاب إلى المطعم المجاور وإحضار ما طلب، أمسك بيدى سماح الاثنتين رفعهما إلى شفتيه، قبلهما، مسح بهما صدره،

ضغطهما وهو يقول:

- وجودك أرجع لى حياتى، من يوم خروجى من السجن وأنا مسجون هنا، أفكر فيك، عاقبت نفسى بالصوم، بالحرمان، لإحساسى بأنى ظلمتك، بالتأكيد فكرت أنى سرقت صورة عقدك من الدولاب.. الحقيقة يا سماح أنى احتفظت بها فى المكتب..

- الحقيقة آه.. من غيرك له مصلحة فى إخفاء العقد؟ أنت وحدك صاحب المصلحة..

- طبعاً، هو التفسير الصحيح، لكن بحسن نية، صحيح أنا قصرت فى حقك، لكن عمرى ما فكرت فى غيرك، يشهد الله على صدق إخلاصى..

قالت سماح:

- ربما قصرت فى حقى قيراطًا، أنا مقصرة فى حقك عشرين قيراطاً..

- فاكرة الأرض ملكك؟

قالت فى دهشة:

- أرض..

- شرطك القديم.. والكمبيالة... نقطعها أو تحتفظى بها..

قالت بعد شرود:

- آه.. صحيح..

- عموما الأرض مازالت ملكك، والكمبيالة تحت أمرك..

اقتربت سماح من مقعده، أحاطت وجهه براحتيها قائلة:

- يكفينى كتب الكتاب، ربنا يقدرنى على رد جميلك..

ثم انتبهت بعد لحظة:

- أمى.. أنا قلت لها راجعة بسرعة.. لابد أرجع لها وأفرحها..

- البركة فى عم عبده، يذهب إليها ويأتى بها . .
- أمى عنيدة، لا يمكن توافق . .
- ستوافق، يخبرها أنك محتاجة لوجودها أشد الاحتياج، أو يكذب ويقول أنك فى ورطة . .
ضربت صدرها بيدها :
- يا لهوى . . تموت من الخضة . .
- لا تخافى . . المهم تحضر وتفرح معنا . . نكون معاً أسرة صغيرة . .
استدار بمقعده المتحرك، اتجه نحو حجرة النوم قائلاً :
- تعالى . . غيرى ملابسك، وجهزى نفسك عروسًا . . اشتريت لك ملابس جديدة . . ثم وهو يتجه إلى حجرة المكتب . .
- اعملى حسابك . . نفسى آكل من يديك، الغداء تجهزيه بنفسك لنا كلنا . . أنا وأنت وأمك وعم عبده . .




انهالت أم زينب بكلمات التوبيخ والتأنيب، تقول فى غضب :
- البنت تنخطف قدام عينينا . .
- ركبت برضاها . .
تدفعه فى كتفه بقبضة يدها :
- لو بنتنا تسيبها . .
جلس عزوز على الأرض متضايقًا، يخلع طاقيته ويعيدها، يتلفت إلى اليمين وإلى اليسار، عادت زوجته لتأنيبه، صرخ :
- قولى يا صبح . . اتفضلى شوفى شغلك . .
أمامه أم سماح تسح الدموع من عينيها تنهمر غزيرة كلما مسحتها

بطرف طرحتها السوداء نزلت دموع غيرها.. قال عزوز:

- كفاية يا أم سماح.. سماح تعرف الرجل.. لو خافت منه ما وافقت على الركوب معه..

- والعمل إن اختفت..

- يبقى العمل عمل ربنا..

- تكون محرمة على.. لا بنتى ولا أعرفها.. أنا عارفة.. نفسها تموتنى ناقصة عمر..

بدأت عربات اليد تتوافد وتقف أمام عزوز، يلقى الفتيان عليه تحية الصباح، يتبادلون مجلسهم إلى جواره، يخرج لكل منهم مبلغًا من المال من حافظته الجلدية الضخمة، يقول للأول مثلما يقول للأخير:

- إذا الزبون طلب أكثر من تقديرك.. ابعد عنه ولف لفة وارجع له.. توكل على الله..

لحه يقترب بمهابته، يمشى وسط الشارع، هب عزوز من جلسته، أسرع لمقابلته، انحنى، جذب يده ليقبلها، شدها بسرعة وقال:

- أستغفر الله يا عزوز..

- الواجب يا حاج حسن..

قال الحاج حسن برهوم:

- إن شاء الله تكون تبت وتهتم بلقمة عيشك..

قبل عزوز يده ظهرًا لبطن قائلاً:

- الحمد لله تبت وربنا يرضى علينا..

التفت الحاج حسن برهوم وسأله:

- مالها أم سماح..

قامت أم سماح مضطربة، اقتربت من الحاج حسن وفى رأسها ألف فكرة وفكرة، لا تريد أن تقول له ما حدث.. تبحث عن الفكرة

المناسبة، قالت أخيراً وهى تقف أمامه:

- ولا حاجة يا حاج، عينى تعبانى..

- اكشفى عليها فى المستوصف..

- إن شاء الله..

ألقى الحاج حسن برهوم السلام، وانصرف فى طريقه، اختفى مع انحناءة آخر الشارع، مشى عزوز مع أم سماح حتى باب بيتها، عاودت الجلوس قائلة:

- كفاية فضايح.. منك لله يا سماح..

استدار عزوز على عقبيه، عند منتصف الشارع توقف والسيارة الملاكى تقترب، توقفت أمامه مباشرة، تحرك بعدما فتح عم عبده بابها ووقف أمام أم سماح، دنا عزوز منه والشرر يتطاير من عينيه، وقبضة يده متأهبة لإيذاء الرجل، قال:

- أخذت البنت وراجع من غيرها.. وديتها فين؟

قال عم عبده مضطرباً:

- بيت زوجها..

- قل الحقيقة أحسن لك..

- الست سماح والبيه عزت طالبين الحاجة..

أقبلت أم زينب، أمسكت بكتف عم عبده صارخة:

- بطّل لف ودوران، البنت فين؟

يحاول عم عبده فك قبضة يدها قائلاً:

- يا ست أنا واسطة خير، والست سماح طالبة أمها لأنها تعبانة..

ضربت أم سماح صدرها بيدها:

- يا لهوى.. بنتى تعبانة.. بنتى تعبانة..

أمسك عم عبده بيدها وهو يفتح باب السيارة باليد الأخرى:

- اركبى يا ست.. اركبى..

تلقى عزوز ضربة من زوجته على كتفه، التفت إليها غاضباً:

- اركب معهم، تعرف الحكاية من أولها لآخرها..

قال عزوز بدهشة:

- أركب..

رد عم عبده عليه:

- اركب يا أخ.. اركب..

ركب عزوز فى المقعد الخلفى للسيارة، اضطجع بظهره على المسند، تتحسس يداه المقعد الجلدى الناعم وعيناه تنظران من الزجاج الخلفى تجاه زوجته وابنته التى سارت خلف السيارة بضع خطوات ثم توقفت، اختفت السيارة فى آخر الشارع..

تحلقت بعض النسوة حول أم زينب وابنتها، سألت إحداهن:

- خير يا أم زينب..

- حكاية لا أول لها ولا آخر، أما يرجع عزوز نعرفها من طقطق لسلامو عليكم..

تركت أم زينب النسوة ودخلت إلى البيت، بدأت تصنف الروبابيكيا التى جاء بها الفتية بالأمس، جلست فى الوسط توزعها، كوم الزجاج مكسور أو سليم، كوم علب الصفيح، كوم الكرتون، ورق الجرائد، الخرق القديمة، البلاستيك، الأحذية القديمة والشباشب والصنادل، توقفت، دوت فى أذنيها كلمات عم عبده رجعت الست سماح لزوجها، ست، البنت سماح ست، غريبة.. ارتفع صوتها منادية ابنتها:

- بنت يا زينب، إخلصى يا بنت..

دخلت زينب متبرمة:

- الواحدة حرام تتكلم مع أصحابها . .

ثم في غضب :

- نعم . .

- الشغل أهم من كلامك الفارغ . .

انهمكتا في الشغل ، تعمل أم زينب بهمة لحظات ، تتوقف لحظات أخرى ، نظرت إلى ابنتها متسائلة :

- طبعا سماح صاحبتك . . ، أكيد حكت لك حكايتها . .

- لا حكت ولا تحكي . .

- صحيح متجوزة . .

- الله أعلم . .

- وسهر كل ليلة معاها ، . . . همس ورغي وضحك . .

- في الشغل ، نفسها تشتغل . .

- طيب ، يا خبر بفلوس . . .

***

وقف عزوز في بلاهة يدور حول نفسه ، يتطلع إلى قطع الأثاث ، صالة فسيحة ، ترابيزة طويلة حولها الكراسي ، صور على الحوائط ، دواليب من الزجاج ، أطباق وفناجين زاهية اللون ، فوق الأرض فرشت السجاجيد ، أمسك يد أم سماح :

- أم سماح ، جنة يا أم سماح . .

نزعت يدها من يده :

- أطمن على بنتي ونتكل على الله . .

اقترب من دولاب الصيني ، يحاول عد الأطباق ، الفناجين الكبيرة والصغيرة ، يبتعد بسرعة ، يقف تحت لوحة مرسومة لأطفال يلعبون في حديقة ، يتراجع إلى الوراء ، يلمح سيدة قادمة من باب في آخر الصالة ،

يتزحزح ليقف بجوار أم سماح..

- أمي.. عم عزوز..

اقترب بوجهه منها مبحلقًا:

- معقول .. سماح.. معقول..

لكز أم سماح بكوعه برفق فى صدرها:

- بنتك..

تحسست أم سماح ابنتها براحتيها، دنت تشم رائحتها، خدعتها رائحة العطر، تراجعت إلى الوراء، قالت:

- لأ.. سماح أشم ريحتها من بين ألف..

أمسكت سماح بذراعيها:

- يا أمي أنا سماح.. نسيت صوتى..

بعد برهة فتْحت الأم ذراعيها، احتضنتها:

- الحمد لله أنك سليمة.. الرجل ضحك علينا..

- أنا قلت له.. خفت ترفضى الحضور..

صحبتها من يدها، تبعهما عزوز مبهوراً، تعبت رأسه من التلفت، هتف فى ضراعة صامتة:

- عقبالنا يارب..

دهم آذانهم صوت لم يتبينا صاحبه:

- أهلاً وسهلاً.. البيت نوَّر..

تقدم من وراءالمكتب، نظر إليه عزوز ثم اقترب بسرعة، مد يده لليد الممدودة:

- أنا عزوز.. معلم الروبابيكيا فى حتتنا..

قال عزت وهو يقترب أكثر:

- طبعا الست الوالدة..

قالت سماح لأمها :

- عزت رجلى على سنة الله ورسوله . .

دعاهم عزت للجلوس فى الصالون ، كاد عزوز يفقد اتزانه ، مقارنة فى صور سريعة متتابعة تمر برأسه ، مساحة الصالون مثل مساحة بيته، فرق شاسع بين الروبابيكيا التى يأكل وينام وسطها ويجلس ويتناول الشاى ويستقبل الضيوف ، شتان بين الصور ، شتان بين الحياتين ، شتان بين سماح وسماح . . الست سماح . . جلس وهو يطرد الشيطان متمتماً :

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . .

أخرجته سماح من تهويماته :

- لك نصيب تتغدى معنا يا عم عزوز . .

- أتغدى . .

وفغر فاه ، قال عزت :

- أنتم ضيوفنا . .

جلست سماح إلى جوار أمها قائلة :

- عزت مصمم أن تعيشى معنا . .

أضاف عزت إلى كلامها :

- البيت بيت ابنتك . . ويسعنا كلنا . .

- وبيتى . . حتتى . . إتولدت فيها وعشت عمرى كله ، ناسها أهلى وأهل سماح . . ربنا يسعدكم ويهنيكم . . أما أنا فبيتى أولى بى . .

رفعت أم سماح رأسها ، قبلت بطن يدها اليمنى وظهرها متمتمة :

- أحمدك يارب . . أحمدك يارب . .

أصر عزت على تناولهما الغداء معهما ، طلب من سماح إعداد السفرة ، قال بعد انصرافها :

- اعذرينى يا حاجة ، لولا المرض كنت حضرت لطلب سماح منك . .

- ربنا ينعم عليك بالشفاء..

- مقدر ومكتوب..

- أكملى علينا فرحتنا بوجودك وسطنا..

- ياريت أقدر..

دخلت سماح:

- الغداء جاهز..

التفوا حول ركن من المائدة، جلس عزوز إلى جوار أم سماح متهيبًا، ينظر إلى صنوف الطعام المختلفة، يخشى مد يده، ينظر فى اضطراب إلى سماح، ثم بنصف عين إلى عزت، قال عزت:

- كلوا براحتكم، البساط أحمدى..

أمسك برغيف من الخبز قطعه نصفين، أعطى سماح نصفه، وبدأ يأكل فى النصف الآخر.. يرقبه عزوز ويقلده، شرب الحساء مثله، أمسك قطعة اللحم بيده مثله، وجد عزت يأكل مثلما يأكلون بالضبط، رغم وجود الشوكة والسكين، سمع من بعض الناس عن طريقة أكل الناس المبسوطين، الأغنياء، أكل بطريقته حتى شبع..

دخل عم عبده بالفاكهة، دعاه عزت للجلوس، اعتذر عم عبده، هتف عزت:

- اقعد يا رجل يا بركة.. اقعد..

جلس عم عبده، بدأ يتناول طعامه..

حاول عزت ثانية إبقاء أم سماح، أخيراً قالت سماح:

- هى وراحتها يا عزت.. صعب عليها بعد العمر الطويل تبعد عن بيتها..

طلب عزت من عم عبده توصيلهما، واستأذن، تحرك بمقعده المتحرك ثانية إلى حجرة المكتب.

## ٨

رش عزوز بعض الماء فوق الأرض، يخمد التراب الذى يهب من تحت أقدام العابرين، جرى الصبية والأولاد، جلس يتطلع بمنخريه إلى نسمة هواء رطبة طرية، يتأمل البيوت أمامه، وقد أعيد بناء بعضها بالطوب الأحمر والمسلح، ارتفع بعضها إلى دورين أو ثلاثة، ظل بيت أم سعد على حاله، بل اقترب سقفه الخشبى من أرض الشارع، بالكاد نصف متر بين قاعدة الشباك وأرض الطريق، كسر الأولاد الدلفتين، وبان داخل الحجرة، امتلأت بالقمامة التى يتخلص منها الناس بإرسال أولادهم لإلقائها كيفما اتفق، كبر عزوز، لا يستطيع الجرى وراء أى ولد يلقى بالقمامة، يستطيع فقط أن يشيعه بالشتم ويهدده بالضرب إن رآه مرة أخرى.

يعيب على أولاد المعلم شفيق قطعهم الشجرة التى كانت مرصداً ينظر إليه، إذا اهتزت أوراقها يشعر بأن الجو آخذ فى التحسن، وأن شدة الحرارة بدأت تنكسر، وإن رآها ثابتة لا تهتز صاح بأعلى صوت يسمعه القاصى والدانى:

- ربنا يفكها بمعرفته..

يحيره أمر اللافتة الخشبية الكبيرة المعلقة على واجهة المقهى، كلما أعد نفسه للسؤال عما هو مرسوم فوقها جدت أحداث أو انشغل بالعمل مع زوجته وابنته، أو أقبل عليه شخص يطمع فى ضيافته.. حمد الله، قبل يده ظهراً لبطن، التوبة، تاب إلى الله، عاد للصلاة بعد انقطاع عنها دام أكثر من أربعين سنة، تعلمها فى كتاب الشيخ حافظ، وانقطع عنها عندما أحس الشيخ حافظ بالكهولة، ودنو الأجل، وإن

ظل لفترة يسند يمناه على العصا ويسراه على كتفى ابن ابنته كامل، يذهب إلى الكتاب ثم إلى المسجد فى صلاة الظهر، ويحرص بعدها على الذهاب لسيدى عباس بنفس الطريقة فى صلاة العشاء..

ليلة البارحة جلس ورأسه بجانب زوجته، يحسبان ما ادخراه من عملهما فى الروبابيكيا. وجداه مبلغا لا بأس به، قال:

- نبنى البيت..

قالت بشهقة:

- وجهاز البنت..

- يعدِّلها الله.. هى العرسان واقفة على الباب.. يمكن..

تململت أم زينب، ساوت السجادة القماش تحت فخذها، قالت بعد برهة:

- تفتكر الفلوس تكفى..

- ويفيض..

شردت للحظة، تخيلت تهافت العرسان عندما يكون لزينب شقة..

وضع عزوز المخدة القماش تحت رأسه وقال:

- سمعت أن الحكومة بدأت تحفر للكهرباء غرب البلد..

قالت:

- ميَّه يا رجل..

- كهربا يا ولية..

ردت وهى تتثاءب:

- كهربا.. ميَّه.. كله فايدة.. ربنا يخلى لنا الحكومة..

استغرق قليلاً فى التفكير، هل يذهب إلى المقاول عبدالسلام ويتفق معه على بناء البيت؟ هل يقوم هو بشراء المون ويأتى العمال باليومية؟ أو من الأفضل أن يستشير عبدالسميع البناء..

بدأ صوت أم كلثوم ينبعث من راديو المقهى، تتمايل رأسه يمنة ويسرة مع صوتها، يردد بعض المقاطع التى يحفظها، انتبه على صوت جلبة قادمة من نهاية الشارع، لم يتبين فى الظلام الذى خيم مصدرها، يرتفع الصوت، يقترب «عايزين حكومة حرة، العيشة بقت مرة»..

هب واقفًا، وجد نفسه بين بعض الصبية والشباب صغار السن، أشبه بمظاهرات الزمن القديم فى الانتخابات، والتى كان يشارك فيها حتى يبح صوته، اجتازه جمع الصبية تطلع إلى الأضواء الباهتة لضوء اللمبات الجاز دُفع بها، ووضعت على قواعد النوافذ، أو امتدت بها ذراع لتنير الطريق..

يتغير الهتاف «إخيه إخيه إخيه، التنحى كان ليه»..

لن يشفى غليله ما رأى بعينيه، اتجه إلى المقهى، الكراسى كلها مشغولة، حول كل ترابيزة عدد من الشباب، يلعب بعضهم الكوتشينة، بعضهم الطاولة، وبعض آخر يتحدثون حول المظاهرات، لم يجد كرسيًا، افترش الأرض إلى جانبهم يستمع بعد أن طلب كرسى دخان..

يقول محمد بن الحاج رضوان:

– خرجت من المصلحة، مشيت حتى شارع القصر العينى، لفت نظرى خلو الشارع من أى مواصلات، الشارع مليان حجارة، سألت واحدًا قال لى: المظاهرات، طلبة الجامعة كسروا السواتر أمام العمارات.. كانوا يهاجمون رجال البوليس.. عقَّب آخر: الطلبة اعتصموا بميدان التحرير.. مشيت، وصلت الميدان، آلاف من الطلبة صبيان وبنات، الهتافات بترج الدنيا.. والبوليس مقفل كل الشوارع، علق رجل كبير فى السن قائلاً:

– اضربوهم، فرقوهم، كل ده خسارة على البلد..

قال آخر:

- سمعت أن عمال حلوان تحركوا بمظاهرة..

قال ثالث:

- إشاعة..

انتهى عزوز من تدخين كرسى المعسل، قام من جلسته عاد إلى مكانه، يحكى لزوجته ويزيد إلى ما استمع إليه فى المقهى، يردد ما سمع من هتافات، قالت أم زينب:

- وطِّى صوتك اعمل معروف..

تذكر الحاج قاسم وفضيحته، قام عزوز بدوره على أكمل وجه مع غيره ممن كانوا يسيرون معه قبل الانتخابات، وعده الحاج قاسم بعدما اشترى الأرض عند الناصية لإقامة مسجد أن يكون هو حامل مفاتيحه، توقع منه مرتبًا ضخمًا، بدأ الحفر، وأقيمت القواعد، السملات والأعمدة وكلها من الخرسانة، بعد سقوطه فى الانتخابات اختفى..

هتف فى سره «لعنة الله عليه، كان زمانى بنيت البيت»..

أمر عزوز زوجته:

- طلى على أم سماح لا يكون بها حاجة..

ردت على الفور:

- عند بنتها سماح..

عادت به كلمات زوجته إلى الجنة، يتراءى له تفاصيل التفاصيل فى بيتها المجهز بكل ما هو غال، كل ما هو ثمين، تكاليف ما فى الصالة فقط يقيم بيته ثلاثة أو أربعة أدوار، نعمة وهبطت عليها من السماء، تطلع إلى السماء وهتف:

- اوعدنا يارب..

خلعت أم زينب منديل رأسها أبو أوية، رفعت وجهها إلى السماء بالدعاء:

- ولا يقدر على القدرة إلا أنت يارب، ستر بنتى زينب وكل البنات.

قال عزوز مغيراً مقصده من دعائه:

- أنا قصدى الحج يا وليه..

- ربنا يكتبها لنا، بعد ستر البنت..

هبت نسمة هواء من باب البيت إلى الصالة الفسيحة وأخرى ساقطة وسط البيت أطفأت اللمبة الصاروخ، قال عزوز ضاحكًا:

- بقت ضلمة.. انبسطى..

مرت أمامهما أم نجاة مسرعة فى خطواتها، تتعثر، كادت تتزحلق بسبب المياه الكثيرة التى رشها عزوز بعد عودته من المقهى، وبسببها هبت نسمات الهواءوأطفأت اللمبة..

- على مهلك يا أم نجاة..

قالتها أم زينب وأردفت:

- خيراً..

جاء صوت أم نجاة من بعيد:

- بطة بنت سعاد، جاءها وجع الولادة..

- ربنا يقوِّمها بالسلامة..

كما اعتاد عزوز فى ليالى السنة كلها، مد يده وتناول المخدة المحشوة بالقماش وضعها جانبًا، دفع زوجته بباطن قدمه اليسرى قائلاً:

- وسّعى..

نهضت أم زينب بعد أن مدت يدها وأخذت من جيبه مشط الكبريت، اتجهت إلى داخل البيت على مهل، نام عزوز على جانبه الأيسر، وسّد رأسه فوق راحة يده اليسرى، سمع صوت كركبة فى كوم الصفيح، لم يأبه وأغمض عينيه.

## ٩

يمشى وسط الشارع كالطاووس، يرفع بين الحين والحين كتفه الأيسر، عادة جبل عليها، كلما تعفَّر وجه حذائه من التراب، توقف ومسحه فى ظهر رجل البنطلون، منذ أن ورثت زوجته بطة البيت، زاد دخله الشهرى بما يعادل مرتبه في المدرسة، امتلأ جسده من النحافة إلى ما قبل السمنة الظاهرة، اتسع عرض صدره، تحول من إنسان نباتى إلى آكل للحوم، كلما تذكر نومته فى حجرة فراش المدرسة بعد الدراسة وخلو الفصول من التلاميذ وحجرات الإدارة، يبصق عليها كأيام وكذكرى، يهتم بتسريحة شعره ويضع الفازلين ليبدو لامعًا، يحلق كل صباح ذقنه ويهذب شاربه، قميص مكوى كل صباح، ينثر العطر على صدره، يمسح وجهه به، يرفع ياقة قميصه ويخرج للعمل، يمشى مطأطئ الرأس كأنه ينظر إلى وجه حذائه عندما يود تجاهل شخص ما، كى لا يلقى تحية أو يتلقاها، أو يستوقفه أحد ما لمطالبته بدين له طرفه، أما إذا أدرك أن صاحب الدين لمحه، فإنه يتراجع خطوات ويقف أمامه معتذراً:

- لا مؤاخذة.. كان رأسي مشغولاً، إن شاء الله قريبًا أدفع ما عليَّ..

اعتاد أن يلزم طريقاً واحدا، بعد فترة يغيره هربًا من أصحاب الديون، لم يترك محلاً إلا واشترى منه على الحساب، وتهرَّب من الدفع، عادة اكتسبها عندما خطب بطه، بدأ بالطريق بين دكان المعلم عيد الجزار حتى البيت، محلاً محلاً، وبائعًا بائعًا، يشرب حاجة ساقعة، يضع الفارغ فى صندوق الفوارغ ويقول:

- يبقى لك..

مرة تلو مرة، يستخلص صاحب المحل من المعلم عيد، حينما يراه

عائداً فى الليل - يصحبه دائماً خطيب ابنته - يتقدم ويشكو للمعلم عيد الذى يخرج من سيالة جلبابه، أو من جيب الصديرى محفظته المتضخمة ويسدد الحساب كثر أو قل، اشتكى منه للمعلم عيد المكوجى، بائع السجائر، بائع المانيفاتورة، بائع الكشرى، محل مسح الأحذية، والقهوجى..

استبشر خيراً بعد وفاة حماته سعاد، استولى على مصاغها قبل أن تصرخ بطة معلنة موتها، أوقع بين أخيها أحمد وأبيه تطلعاً لغد تخيله وعمل من أجله، دبر وحاك المؤامرة تلو المؤامرة حتى ترك أحمد أباه، انتقل للعيش مع أخته، وبعد بضعة أشهر حقق مراده، باع المعلم عيد البيت الآخر الذى تركته سعاد، حصلت بطة على حصتها، وأحمد على حصته، والمعلم عيد أخذ ربع القيمة حقه، تغير حاله تماماً، أهمل عمله، تلقى الإنذار تلو الإنذار بالفصل..

كل مساء، يطلب عادل من أحمد شراء كباب للعشاء على حسابه، ويغمز له بعينيه حتى لا تلحظ بطة، يغادر أحمد البيت ويعود بالوجبة ساخنة، يناولها لبطة، ويدس فى يد عادل نصف قرش الحشيش، ينتفض عادل وكأن به مساً من الشيطان:

- ضعى الفحم على النار، أين الجوزة..؟، حضرى العشاء..

تعلن بطة عن استيائها، تزوم وتحتج، تصرخ:

- الولد صغير، ناوى تضيّعه يا عادل..

يرد أحمد فى طيش:

- أنت الصغيرة، بلغت سن الرشد..

- من أدخل فى رأسك الوهم.. أنا ممكن أدخل السجن لو أبوك عرف..

يقهقه عادل قائلاً:

- ياريت..

- أنا عارفة .. نفسك تتخلص مني..

يتصنع الجدية، يربت كتفها:

- لو كنت .. كنت وضعت القانون على رقبتك.. لا بلّغنا عن تركة، ولافيه مجلس حسبي، والمعلم عيد ما صدّق خلص منك ومنه، الرجل صفى أعماله كلها مرة واحدة، وهج..

قبل إقامة سرادق الأربعين، رتب المعلم عيد خط سيره، استأجر شقة وأتم زواجه من عانس استطاعت بمهارة هز حياته إلى نقيضها، ينزعج عادل عندما يذهب إليه في الدكان ويجده يغمّس من قطعة جبن ويتبعها بعود فجل أو جرجير، يدعوه للأكل معه:

- تفضل ياسي عادل..

يقول عادل بحذر، مخفيًا السخرية:

- جبنه وفجل.. جبنة وجرجير بعد طواجن اللحم..

يرد المعلم عيد في قناعة:

- الوقت..

يهمس عادل لنفسه «أي وقت، المحل هو المحل والمكسب هو المكسب..»

- أحمد محتاج قرشين..

يتوقف المعلم عيد عن تناول طعامه:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. لحق يخلّص فلوسه..

- شاب يا معلم.. مصاريفه كثيرة..

يشعر عادل بنظرات المعلم عيد تعريه، قبل أن تظهر خلجات الحرج، يتلفت يمنة ويسرة قد ينادي صبي المقهى، وقد يسحب كرسيًا يجلس عليه، وقد يستأذن متحججا بمشوار يقضيه ويعود.

ارتضى المعلم عيد أن يعطى ابنه مائتى جنيه يدفع جزءاً منها لأخته نظير إقامته، خدمته وإعالته، وجزء آخر يصرف منه، فشل فى أن يأخذه للعيش معه فى بيته الجديد، وفشل فى إقناعه بالعمل معه فى الدكان، لعنه وطرده من حياته.. بدأ يضيق ويضج من طلباته سواء جاء بنفسه أو أرسل زوج أخته، ما أن يغلق الدكان يمر على السمسار، يحثه على إيجاد المشترى للبيت بأى ثمن.. ثم أتبع البيت بالدكان، أسرع صاحب دكان الأدوات الصحية بجوار دكانه لائماً عاتباً:

- أسمع من آخر الدنيا رغبتك فى بيع الدكان، يصح يا معلم.. الجار أولى بالشفعة..

- لم تلمح برغبتك..

يقول الرجل فى دهشة:

- غريب أمرك يا معلم.. يعنى أطردك من محل أكل عيشك.. أول مرة أسمع حكاية البيع من عيد السمسار..

- ولا تزعل، الخلاصة..

يقول الجار بيقين:

- مستعد أدفع فيها طلباتك..

ثم يستدرك:

- سعر السوق يا معلم..

تم للمعلم عيد ما أراد، جمع كل ماليته، وانتقل مع زوجته إلى قريتها فى إحدى محافظات الوجه البحرى..

تزامن تصفية المعلم عيد لأعماله فى بيع اللحوم، والتخلص من ارتباطاته بابنه وابنته، مع غلق المقهى لفترة طويلة فقد معها كل أصحابه.. لم يعد إلى الحى بعدها إلا بمضى ثلاثة أشهر اجتاز شارعه فى هدوء فترة حلول الظلام، انعطف إلى دكان الحاج عبده ليأخذ حصة

الشهور الثلاثة من التموين، سكر وشاى وزيت وصابون وكوبونات الجاز..

يلقاه الحاج عبده بالترحاب، يعد له الشاى، يعد له حصته وهو يسأل عن أخباره يقتصر المعلم عيد على قوله ردًا على كل ما يثار:

– الحمد لله، فضل ونعمة من الله..

يجد الحاج عبده فى الردود المبتسرة مالا يشفى الغليل، فيكف، وينهمك فى إعداد تموين المعلم عيد، ثم يودعه داعيًا له بالسلامة..

يزفر المعلم عيد بمجرد ابتعاده، فكر أكثر من مرة فى نقل بطاقة التموين إلى بقال القرية، رفضت زوجته:

– نخسر الفرق يا معلم..

نظر إليها مندهشًا:

– أى فرق..

– حصة الفرد فى المدينة أكثر من حصته فى القرية..

يتناول أقاربه فى الحى سيرته بالغضب والاستياء، يصبون غضبهم ولعناتهم على زوجته الجديدة، يتهمونها بقطع أواصره بأهله، تتجدد سيرته كلما علم أحدهم بحضوره واستلام التموين والسفر.. يعيدون ويزيدون تريده مقطوعاً من شجرة، لو مات، أقرب الناس إليه لن يعرفوا بموته..

أوشكت مالية عادل على النفاذ، غيّر عادل طريقه بعدما أخذ الديَّانة يطاردونه، لاحظ فى المرة الأخيرة تحفز كل دائن، بعدما يئسوا من تحصيل ديونهم، المكوجى ينظر إليه رافعًا مكواة اليد الحديدية الساخنة، الجزار الذى تعامل معه يشهر سكينه فى الهواء، صبى المقهى يشتمه:

– خربت بيتى الله يخرب بيتك..

بائع السجائر حين يلمحه يخرج إلى الرصيف يلوح بعصا المقشة، بائع الفاكهة يمسك فى قبضته بثقل الحديد زنة كيلو أو اثنين ويهتف:

- اللهم اخزيك يا شيطان..

توقع عادل أنه لن ينجو من أيديهم فى مرة قادمة..

بدأ يمشى مختالاً فى الطريق الآخر المفضى إلى مقر الاتحاد الاشتراكى، وقد حقق مراده بالانتقال إلى المدرسة بمجرد الإعلان عنها، تخلصت منه مدرسته القديمة وتنفس مديرها الهواء بارتياح، بدأ التعامل مع محلات الجانب الآخر، بشيء من العزة والكبرياء.

تعرف على الجزار، والبقال، والمكوجى، وبائع الفاكهة، والمقهى.. يظهر بمظهر الخبير عند اختياره قطعة اللحم ويقول:

- من العِرْق وحياتك، خذ الثمن الذى يرضيك..

ويقول للمكوجى:

- أريد الاهتمام بالقمصان والبنطلونات، ولك البقشيش..

استولى على العقول بمظهره المصطنع، فوثقوا فيه، عظَّموه وبجَّلوه، صار يستمتع باسمه تردده الأفواه «عادل بيه.. عادل بيه»..

بضعة أشهر وبدأ يماطل بشتى الحجج، يقول للكواء:

- أنا آسف، ليس معى فكة..

ويقول للجزار:

- أنا آسف، نسيت المحفظة..

ويقول للبقال:

- أنا آسف، يبدو النقود وقعت من جيبى..

مرة تلو مرة، أحس بالتغير، عاد من جديد أستاذ عادل، سدد بعضًا من ديونه، وقلت رتبته إلى سى عادل، توقع يومًا مًا أن ينادى بعادل فقط.. هداه تفكيره الشيطانى إلى الإيذاء، يدبج الشكاوى ويبعث بها

إلى مديرية التموين، هذا يخفى بضائعه ليرفع سعرها عندما تشح من السوق، وهذا يبيع أزيد من التسعيرة، والجزار يشترى لحم الجمعية ويبيعه بالسعر الأعلى.. و... و...

ضج الجميع بالشكوى، يبحثون وينقبون عمن تسبب فى محاضر المخالفات، والغرامات، كلفوا بعض الناضورجية بمتابعة حملات التموين، تنزل الحملة إلى الحى فتجد المحلات كلها أغلقت أبوابها، سعوا وتقصوا حتى توصلوا إلى رئيس المخبرين فى القسم، توسلوا إليه لمعرفة المؤذى ابن المؤذى الذى يُخرّب فى حياتهم.

استطاع عبدالمعطى التوصل إلى حقيقة لا تغنى من جوع، الشكاوى كلها بخط شخص واحد، أجمعوا على أنه هو، تطوع أحد الشبان باكتشاف جلية الأمر، وطالبهم بشراء قرش حشيش وبعد سهرة معه يأتى لهم بالخبر اليقين..

اعتاد الشاب أن يجالس أحمد فى ركن المقهى الداخلى، يفرغون الدخان من السجائر «الوينجز»، يخلطون بها الحشيش بعد تسخينه وفريه، يعيدون تعبئتها مرة أخرى، يقضون أغلب الليل فى التدخين ولعب القمار..

أوعز الشاب لأحمد بأن الحكومة وضعت المقهى تحت المراقبة، وتأسَّف لأنه يعيش مع أسرته، لا يعرفون بتناوله الحشيش، ولا يستطيع استضافته.. وتمنى أن يجد مكانًا مهيأً ليريه طرق استخدام الحشيش والاستمتاع به دون التعب فى وضعه بسجائر «الوينجز»..

تطلع أحمد إلى المعرفة، يعرف تعاطيه بوضعه فوق حجر الجوزة، قال له الشاب:

– ألم تجربه مع الشيكولاته..

اندهش أحمد وسأل:

- كيف ؟

قال الشاب سريعًا وهو ينهض :

- سأعلمك الاستمتاع عند توفر المكان . .

قال أحمد ببساطة :

- تعالى معى . .

صحب أحمد الشاب إلى بيت أخته ، سبقه وأخبرها بأن معه ضيفاً ، أفسحت الصالة ، دعاه ، جلسا فى حجرة الصالون ، انضم إليهما عادل ، رحب بالشاب ، تعرف عليه . .

طلب الشاب «باجور سبرتو» وكنكة ، لبى أحمد طلبه ، أخرج من جيبه قطعة الشيكولاته وقرش الحشيش وضعهما فوق ترابيزة صغيرة وسط الكراسى ، نظر عادل لقرش الحشيش بذعر أطل لسانه ومسح شفتيه ، قال الشاب :

- لا مؤاخذة يا أستاذ عادل ، سمعت أن الحكومة تطارد الحشاشين . .

ثم انشغل بتقطيع قالب الشيكولاته إلى قطع صغيرة ، وضعها فى الكنكة ، قضم بأسنانه ربع القرش ووضعه معها ، نظر إلى أحمد ضاحكا :

- أدوِّبها بصوابعى يا أحمد . .

فهم أحمد ، أسرع وأتى بملعقة صغيرة ، رفع الكنكة فوق نار السبرتو ، بدأ يقلب بالملعقة بعد قليل ، نفخ النار فانطفأت ، تركها لتبرد . .

- أحسن من الجوزة ، المعسل يحرق الصدر والقلب ، ولف السجاير يسبب ضيق التنفس . . أكل الشيكولاته بالحشيش ، يمتعك ولا يضرك . .

أطلق عادل ضحكة مدوية وقال بصوت خرج جهوريًا :

- اختراع حشاش مخضرم . .

- سنة الحياة يا أستاذ عادل، اسأل وأنت تعرف، المهْرب، مهرّب الصنف يعنى، يخترع طريقة جديدة للتهريب لما طريقته القديمة تنكشف، وتبدأ الحكومة تخترع طريقة جديدة لضبطه.. صح..

علق أحمد وهو يتطلع إلى الكنكة ويتحسسها بيده:

- صح.. الكَنكة بردت..

ناول الشاب لأحمد وعادل ملعقة لكل منهما، وفى غفلة منهما رفع الملعقة إلى فمه فارغة..

- إيه الرأى..

لحس عادل شفتيه وقال:

- لذيذة..

وقال أحمد:

- متى يظهر مفعولها..؟

رد الشاب:

- ليلتنا فل إن شاء الله..

قام عادل وأحضر الراديو، ظل يفتش حتى سمع صوت غناء، عاد إلى مكانه وتناول ملعقة أخرى من الكنكة.. فعل أحمد مثله..

أخذ الشاب يحكى عن مكائده وحيله للتخلص من أعدائه، يتباهى بأنه أدخل محسن بن عبدالله السجن لأنه لعنه ولعن أباه، وكيف قضى على عبدالفضيل بائع الخضر لأنه رشه بالماء صحيح دون قصد لكنه لم يعتذر.. و..

قال عادل وهو يميل رأسه إلى الوراء:

- دماغى ثقلت..

وأخذ أحمد يضحك بلا سبب، ويستمر فى الضحك..

قال الشاب متسائلاً:

- بالذمة أبقى أنا غلطان، باعتذار بسيط كان يفضل عبدالفضيل لبيته وأولاده..

تنحنح عادل وقال:

- أنا غيرك.. أنا طريقتي نظيفة..

- لا يوجد حتى الآن طريقة نظيفة لمحاربة الأعداء، مثلاً...

- يعني أنا أنتقم بطريقة أنظف، قصدي مهذبة..

- أفهم يا عادل بيه..

- الأمر في غاية البساطة، ورقة وقلم وظرف جواب وورقة بوستة.. أكتب الشكوى بمزاج، وأبعتها لمكتب التموين، للبوليس.. عليهم مهمة التنفيذ..

ثم قهقه قهقهة عالية وأردف:

- وأقف أتفرج..

قال أحمد:

- تقتل القتيل وتمشي في جنازته..

صفق عادل بيديه وقال:

- كانت على لساني..

تمايل أحمد يمنة ويسرة، أشار إليه عادل بالذهاب إلى سريره..

- صغنن، أحمد صغنن..

حاول عادل دفع ومساعدة أحمد على الوقوف للذهاب إلى سريره، لم يستطع إيقافه على قدميه، ترنح أحمد وسقط، حاول ثانية، فشلت المحاولة، قام الشاب قائلاً:

- دعه مكانه، تصبح على خير..

قضت بطة ليلة تصفها للجيران بأنها أسود ليلة في تاريخ حياتها، تقول:

- الولد أهزه يمين، أهزه شمال، ولا حركة، أحاول أفوّقه، غرقته ميّه، قلت الولد مات.. رقعت بالصوت.. الله يكرمه عصام الدكش، طلع السلم قزح، طلب جبنة قديمة أو شوية مش، دس حتة الجبنة من هنا، والولد يا عين أخته خرَّج كل معدته.. يجعر ويقول «الحقنى يابا.. الحقنى يابا»..

تفرقت النسوة وكل منهن تقول:

- ربنا يا أختى يتوب عليهم من الهباب ده..

قرب الفجر أفاق عادل، قال لبطة:

- حلمت بلمة وزحمة.. كان حلم..

لطمت بطة خديها حتى احمرتا، صرخت فيه:

- حلم.. كانت مصيبة..

حملق فى وجهها فى بلاهة، يحاول تذكر ما حدث..

## ١٠

اجتمع الدائنون، الفكهانى، المكوجى، البقال، الجزار، بائع الأقمشة، صاحب محل المانيفاتورة، بائع المخدرات، بعض أولياء أمور التلاميذ الذين تسبب فى رسوبهم حتى فصلوا من المدرسة القديمة قبل أن ينتقل منها، توالت الاقتراحات:

- نَكْرِى من يقتله..

- ندس له قطعة حشيش فى البيت ونبلغ عنه..

- نطس وجهه بمية نار..

- أنا مستعد أشترى طبنجة وأفرغ فيه خزنتها..

قال أحد أولياء الأمور:

- يا جماعة.. الحلم سيد الأخلاق.. خسارة أى واحد يسجن بسببه..

فى مظاهرة احتجاج أجمعوا على أنه سبب الضرر للجميع..

قال المكوجى:

- أنا خارج الموضوع، صحيح استلف منى بدلة زبون واستولى عليها.. لكن ورايا عيال..

وقال البقال:

- عشرون جنيها لا تسبب لى مشكلة.. ربنا عنده العوض..

قال الجزار:

- عندى الحل..

همهموا يطالبونه به، قال:

- نسلط عليه أبو سريع يناوله علقه، يكسره، يتوب عليها..

يعرفون جميعًا أبا سريع، يعمل عربجيًا ويسكن درب الطحان، يخشاه الجميع، رغم ضآلة جسمه، لكنه يمتاز بخفة الحركة، ويستخدم الكرباج كأمهر محارب، ومدافع، رآه بعضهم فى بعض معاركه كالبهلوان، ولم تستطع الشرطة القبض عليه مطلقًا فى حالة تلبس..

وافقوا جميعًا على الرأى، قال صاحب الاقتراح:

- خصوصًا وأنه خالى شغل، توقف حاله بعد ظهور التروسكلات..

جمعوا خمسين جنيهًا، تطوع صاحب الاقتراح بإعطائها لأبى سريع، وشرح الموضوع بكل تفصيلاته حتى لا يظن أن الهدف توريطه..

قال أبو سريع بعد أن استمع إلى شرح الموضوع بالتفصيل:

- مادام الشر راكبه، أنا بعون الله أتوبه..

***

عصر أحد الأيام، خرج أبو سريع حتى ناصية الدرب، جلس فوق حجر له فى المكان أكثر من أربعين عاماً، كان يستخدم كمتراس خلف بوابة الدرب بعد إغلاقها مع حلول الظلام، يراجع خطته للتحرش بعادل، والقيام بمهمته، نادى ابنه الصغير، فى حوالى الخامسة أجلسه بجانبه، شرح له ما يريده منه، وعندما اقترب عادل وحوله عدد من تلاميذ المدرسة أعطى أبو سريع لابنه عصا صغيرة كانت فى يده، وأشار بيده الأخرى نحو عادل..

جرى الطفل حتى حاذاه، مشى خلفه ثم انحنى ودس العصا بين ساقيه وعند تبادل قدميه الخطو اختل، سقط عادل على وجهه، لم يستطع وقف الاندفاع لثقل جسده، انقلب على ظهره سريعاً، لمح الطفل يجرى نحو أبيه، قام عادل مغتاظًا حانقًا، يسرع وهو ينظف قميصه وبنطلونه أمسك بياقة الطفل، رفعه عن الأرض، قام أبو سريع ودفعه دفعة قوية فى صدره:

- عايز تخنق الولد..

اختطف منه الولد بسرعة وأبعده، تلقى عادل قبضة قوية فى فمه، تساقط الدم مع الصراخ والسب، اندفع هاجما على أبى سريع، سحب أبو سريع الكرباج من طيات ملابسه وانهال علّى ساقى عادل، يلتف الكرباج حول ساقيه، يجذبه أبو سريع يقع عادل على ظهره، على بطنه يتقافز عاليًا ليتفادى الكرباج، الناس تضحك لقفزاته كالقرد، يقوم، يقع، يتقافز، وأبو سريع يلف ويدور حوله، لا يكف ذراعه عن ملاحقته بالكبرباج، شعر عادل بقدميه تنتفضان، حاول الوقوف، ترنح وسقط، حاول، سقط، اختفى أبو سريع وابنه وكرباجه..

تطوع بعض أصحاب الديون، حمله أربعة منهم كما تحمل خشبة الميت، أشبعوه تقريظًا، سخرية، تهكمًا وشماتة، أوصلوه إلى مدخل

البيت وألقوا به أرضاً..

وقف الشاب صديق أحمد، صانع الشيكولاته المخدرة يتابع الموقف، بطة تلطم خديها، تبكى، تحاول استخلاص كلمة واحدة من فمه، يشوح بذراعيه، ويخرج الصوت أشبه بصوت كلب يزوم، لا يستطيع النطق، لا يستطيع الوقوف، لا يستطيع رواية ما حدث، صعد به بعض الرجال مرابعة، حملوه وفوق فراشه أرقدوه، يزوم، يحاول النطق، يبكى صرخت بطه فى أحمد:

- واقف تتفرج، اتصرف، شوف دكتور..

خرج أحمد لا يلوى على شيء، صحبه الشاب حتى أول الشارع وقال:

- مستحيل يوجد دكتور.. المستوصف يفتح بالليل، الدكتور عصمت يفتح الساعة سبعة..

قال أحمد:

- والعمل؟

- اطلع الميدان وهات تاكسى وانقلوه للمستشفى..

تركه وانصرف، وقف أحمد متحيراً، ماذا يفعل؟ مشى نحو الميدان، استقر رأيه على طلب الإسعاف من كشك ناظر موقف الأتوبيس..

***

لحق الشاب بجمهرة أصحاب المصلحة فى علقة أبى سريع لعادل، وجدهم ينتظرون فى لهفة، قال الخبر الذى دوى كقنبلة:

- شلت لسانه ورجليه..

تناولوا الأنفاس بشهية، تفرقوا ثنائيات وثلاثيات، ورباعيات، والعلقة - القصة - تتطاير فوق الرؤوس، وتتخايل فوق كل الشفاه..

## ١١

مشوار طويل قطعه الحاج حسن برهوم من بيته إلى بيت الحاج أحمد الفتوة فى عمارته الجديدة، يتفادى أكوام الرمال، وأكوام الدقشوم التى أفرغتها سيارات نقل الحكومة فى الشوارع، يتمايل يمنة ويسرة مع الطريق، وقد أدى لعب الأولاد فوقها إلى افتراشها للأرض كلها..

مشوار أطول تقطعه الذاكرة كلما وجد نفسه وحيداً، منفرداً بنفسه، لم ينتظر حتى يلحق به أحد فما أبلغه به الرسول كان عاجلاً:

- الحاج أحمد الفتوة على فراش الموت يطلبك بالاسم..

يعرف مرض الشيخوخة الذى أقعد الحاج أحمد الفتوة، يكاد يبلغ الثامنة والتسعين من عمره، ظل سنواته الأخيرة قائما قاعداً نائمًا أمام عمارته التى شيدها وكأنه يخشى أن ينقلها اللصوص من مكانها، كم أنَّبه، كم لامه، لم يقتنع واستمر كمن يحرس كنزاً يخشى تبدده..

نفس المرض الذى أصاب والده، ووجد نفسه مضطرا إلى الإحلال محله، تولى زمام العمودية، يرعى الدار، ويشرف على الخفر، ويحل المشاكل، ويتعامل مع النقطة، ويقوم بواجبات المشاركة فى الأفراح، وتقديم واجبات العزاء، لم يهنأ بمنصبه الجديد الذى ورثه، إذ سرعان ما ألغيت العمودية، ونقلت تبعية الخفر إلى القسم بعد إلغاء النقطة، واستولت الحكومة على أرضه بضعة أفدنة وأيضًا مثلها من أراضى أحمد الفتوة، وعثمان الموجى، أقيم فوقها النادى، سارع أحمد الفتوة بتقسيم ما بقى إلى قطع صغيرة ما بين مائة متر ومائة وخمسين، ظهر عيد مستهلاً عمله كسمسار، أذاع فى الأحياء القريبة عن التقسيم، ورخص السعر، تهافت الناس على الشراء، حفرت الأراضى، أقيمت القواعد

ومدت السملات، ارتفعت الأعمدة، حركة عربات الطوب الأحمر والرمل والزلط لا تهدأ ليلاً أو نهاراً، تبعه الحاج حسن بتقسيم أرضه - أرض الحديقة - وباعها بعدما أحس بالخطر يدنو من المنطقة، استولت الحكومة على الحوض الشرقى، هدمت البيوت التى أقامها المشترون، شيدت عليها المساكن الشعبية، خاف أن تستولى أيضا على أرض الحديقة فباعها، يصيخ السمع ويتحسر، دخلت المياه النقية والكهرباء المساكن الشعبية، دخلت أرض الفتوة، دخلت أرض الحديقة، ارتفع سعر قطع صغيرة من الأراضى لم يبعها أصحابها، أضعاف أضعاف ما باع به، يرضى نفسه بقولة يرددها دوماً «عوضنا على الله»..

سنوات وسنوات ينتظر وغيره صرف الحكومة للتعويضات، يروح الأستاذ حسنى ويجيء دون جدوى..

يرعى أباه ويمرِّضه، يشرف عليه طبيب المستوصف الدكتور مسعد أبو طاقية، أصله من البلد وكان زميلاً لابنه سيد فى الجامعة، هما أول اثنين يخرجان من البلد للجامعة، فضل ابنه السفر للخارج للحصول على الدكتوراه، وفضل مسعد العمل بالمستوصف ليلاً، إضافة إلى عمله فى مستشفى الحكومة صباحاً..

يصاحب كل حدث من الأحداث، سحب البساط من تحت قدميه، سحب الخفر قلَّل كثيراً من هيبته، لم يعد يأتى صاحب الشكوى عارضاً شكواه، إلا القليل النادر، عرف أغلب الناس طريق قسم البوليس، لم يعد يتواجد أثناء المعارك ليفضها، ولا أثناء مجيء الحكومة ليصحبها إلى مكان الواقعة أو الحدث، وصله أنباء ما حدث لزوج بطة بنت سعاد، يرى أبا سريع يمشى فى خيلاء يتلقى كلمات التشجيع، والتهانى بفوزه على عادل.. يسمع الحكايات والروايات ليقف على التطورات فحسب دون تدخل..

كانت الضربة القاضية على المكانة، الهيبة، العزة، والاحترام عندما تبددت نصف ثروتهم هباء، نقل إليه الأستاذ حسنى الخبر، اهتزت الأرض، مادت، شهق الأب ولفظ بعض الأنفاس الهائجة..

- سمعت القرار الجديد يا عمدة..

- خيراً يا حسنى..

- إلغاء ورقة المائة جنيه وورقة الخمسين..

رفع الأب رأسه وصرخ فى فزع:

- مش معقول يا ولد.. قول كلام غيره..

رد الأستاذ حسنى بتأكيد ويقين:

- والله يا عمدة.. وحددوا المدة للتغيير من البنوك بأسبوع واحد..

ضرب العمدة رأسه بقبضتيه وأخذ ينوح:

- يا خراب بيتك يا عمدة.. يا خراب بيتك يا عمدة..

وسقط بلا حركة ولا نفس..

أمسك حسنى بذراعه يتحسس النبض، دس يده فى صدره مكان القلب، انقلبت الدنيا حولهم، نساء ورجال وأطفال، شباب وصبية..

المصيبة مصيبتان، الكارثة كارثتان، الحاج حسن برهوم فى وضع حالك، لكن رباطة الجأش التى تعلمها منذ نعومة أظفاره جعلته يتصرف بتعقل:

- اجمع من تثق فيهم يا حسنى..

دخل إلى حجرته، رفع شلتة الكنبة، فتح السحَّارة، أخرج رزم الأوراق المالية، كلها مئات، لا وقت لعدها، يعرف كل رزمة خمسين ورقة، صنع عدة أكوام، كل كومة بها أربع رزم، عد الأكوام، تزيد عن المائة، زاد عدد الرزم وقلل من الأكوام، عشرون كومة، زاد عدد الرزم، قلل عدد الأكوام..

جاء حسنى بثلاثة رجال، نظر الحاج حسن وقال:

- العدد قليل يا حسنى..

قال حسنى:

- لا أثق فى غيرهم..

اجتمع الحاج حسن بالرجال، قال لهم:

- يصحبكم حسنى غدا إلى البنك لتغيير الفلوس.. سأعطى كل منكم تعبه وعرقه..

أدار الحسبة فى رأسه، يمكن التغيير فى الأسبوع المحدد، «إن شاء الله نلحق نغيرهم..»

بدأ الحاج حسن برهوم يتلقى المعزين، افترشت الحصر، وزعت الدكك فى المندرة، فى مدخل الدرب، على جانبى الشارع، ضفف ضفف، جماعات جماعات، كلَّت قدماه من الوقوف والجلوس، تبدَّى الإرهاق فى التباطؤ مرة تلو مرة، لم يعد يقوى، يمد يده وهو جالس ويعتذر لعجزه عن النهوض..

انشغل فى الصباح الباكر بالاستعداد لإجراء لوازم الدفن، جاء مفتش الصحة، سلمه التصريح، ذهب أخوه إلى محلات عوف بحى الأزهر لإحضار الكفن، اتفق مع حسنى وكلفه بالذهاب من البنك إلى مقرئ معروف يساعده آخر هو مقرئ البلد..

عاد الذين كلفهم بتغيير الأوراق المالية بخفى حنين، انتحى بهم جانبًا، قالوا:

- الزحام فظيع يا حاج، الصفوف طويلة، لم نغير شيئًا حتى أغلقت الشبابيك.

أخذ ما معهم من أموال وأعادها إلى سحارة الكنبة، منبها عليهم بالحضور إليه فى الصباح الباكر، ثم قال:

- بعد صلاة الفجر . .

قرر فى نفسه أن يصحبهم لعل وعسى . .

***

ستة أيام متوالية، متواصلة، من التعب والإرهاق، الألم والحسرة، الضيق والتبرم، الغضب والاستياء، أمكن تغيير نصف المبلغ تقريبا، أمكن إنقاذ ما يمكن انقاذه، يواسيه الأستاذ حسنى قائلا:

- العوض على الله، افترض أن النار أكلتها . .

- النار تأكلها أفضل من رؤيتها بلا قيمة . .

ويستطرد خالعًا عمامته عن رأسه:

- منهم لله . . منهم لله . .

انتبه للطريق، وجد نفسه قد تخطى بيت الحاج أحمد الفتوة بعدة بيوت، رجع وناداه، استقبله ابنه الأكبر، صحبه إلى حجرة أبيه، رفع الحاج أحمد الفتوة رأسه ومد ذراعه كمن يستغيث، سقطت رأسه، رفعها ثانية:

- تعال يا ابن الغالى . .

جلس الحاج حسن برهوم على كرسى بجوار السرير، أمسك الحاج أحمد الفتوة بيده ولم يتركها، يقول فى تلعثم وصدره يعلو ويهبط فى عنف:

- أمانة يا ابنى، أمانة فى رقبتك، تدوّر على حسين، تتقصى أخباره، تقول له شقته جاهزة، وعروسته جاهزة . .

يهز الحاج حسن رأسه:

- حاضر . . من عينى . .

يعرف الحاج حسن برهوم عدد الشهداء فى الحى، وعدد المفقودين، سأل وتقصى وعلم أن المفقودين سيعلن أهلهم بعد مرور أربع سنوات

باستشهادهم إذا لم يعودوا، ربما وقعوا فى الأسر، أو كانوا تائهين فى الصحراء.

أعاد، كرر كثيراً الحاج أحمد الفتوة، شدَّد والحاج حسن يقول:

- حاضر.. حاضر..

أدرك أن الرجل فى الوقت العصيب، اللحظات الأخيرة، ودعا أن يخيب الله إدراكه..

## ١٢

نعى الناعى انتحار الصول مجاهد، شنق نفسه، زوجته رغم تمنيها موته لم تكف عن الصراخ حتى وقعت مغشيًا عليها، أطلق عليه أهل الحى «رجل كل الحروب»، انتمى لجماعة الإخوان المسلمين، تطوع محاربًا فى حرب ٤٨، شاركه فيها عبدالبر، كان مجاهد عزبًا، أما عبدالبر فقد ترك طفلته الرضيعة سماح، عاد مجاهد سليمًا معافى، واستشهد عبدالبر، رفضت زوجته الزواج ثانية، وقفت حياتها على تربية سماح بكدها وتعبها وعرقها..

الصول مجاهد، انتظم فى صفوف الجيش قبل قيام الثورة بعدة أشهر، هرب قديمًا من فلاحة الأرض إلى جماعة الإخوان، ثم هرب من البطالة إلى الانتظام بالجيش، تزوج بنت الحاج منصور الشوربجى، أنجب منها سمير وسامية، استقرت حياته، كان ملتقى عيون الشباب بوضعه، يفتخر دائما بأنه شارك فى الثورة، وكانت حياته على كف عفريت.

حصل على التكريم من الحربية، ورقى أيامها، كان يتمتع بصحة جيدة، قوام متناسق، خطوة منتظمة، رأسه دائما ثابتة، تتطلع إلى الأمام عيناه.. انتقل مع وحدة الصاعقة التى يفتخر بانتمائه إليها، جاب ربوع

القطر، فى الصحراء، داخل المدن، فى الترع والمصارف، فى السواحل، كلما ظهر أسلوب جديد فى التدريب الشاق العنيف، تعلّمه وعلّمه، اتسعت مداركه، ثقف نفسه بنفسه، انتقل إلى سوريا بعد الوحدة، وعاد مخذولاً بعد الانفصال، عانى الموت واسترداد الحياة فى جبال اليمن، لكنه عاد منها غانمًا، كلما حضر فى إجازة أعطى لزوجته كل مدخراته، هدمت البيت القديم وجددته على أحدث طرق البناء، على نظام الشقق، بدا واجهة طيبة لمدخل درب الطحان، أجّرت الدور الأول والثانى، واستقرت فى الثالث تستمتع بالشرفة، ترى منها المساكن الشعبية والشمس فى شروقها، تهب نسمات الهواء المنعش صيفًا، وتستدفئ فى الشتاء بدفء الشمس فى الشرفة، أو من النافذة عندما تسقط على السرير أو الكنبة، يسافر ويجىء ويدخر، يحمد الله فما كان يتوقع هذا المستقبل المستقر، ولا الحياة الرغدة..

يلوم أخاه كلما لقيه فى إجازة من إجازاته، لم يغتنم الفرصة ويكون نفسه، يتزوج ويشيد بيتًا وأسرة، يده كالمنخل يتسرب منها كل ما يحصل عليه من أموال، عمل فى بناء السد العالى، تضاعف دخله عدة مرات، كلما أتى فى إجازة استلمه شيطان الترف، عرف طريق السينما، المسرح، الكباريه، كل تحركاته بالتاكسى، يقتنى أفخر الثياب، يدنو من عقده الرابع، ومازال بلا استقرار.

مات الصول مجاهد، لم تقتله رصاصة، ولم يثقب بدنه فيكرز طائرة، جاء جوًا من اليمن إلى رأس العش، حارب العدو الصهيونى وانتصر، أقام مع زملائه احتفالات النصر فى ظل حالة الطوارئ «ج»، كان دائما باسم الثغر، نشيطاً، دائب الحركة..

لا يدرى أى من زملائه ما حدث له؟ وأى محنة قاسية ألمت به، كان يحدوه كل الأمل وكل التفاؤل، بين حال وحال ساعة زمن واحدة..

كان الصول مجاهد نائمًا، سمعوه يصرخ، يصيح، يأمر بالضرب، قام هائجا، يطيح بكل ما يلقاه، تجرد من ثيابه، يهجم على زملائه كأنهم أعداؤه، أمر القائد بتكتيفه، ونقله إلى المستشفى..

تقرر - بعد فترة - إحالته للاستيداع، وصرف معاش إضافة إلى مكافأة سخية كتعويض، عاد إلى البيت ليشعل فيه نار الجحيم..

برنامجه اليومى لا يتغير، كفيلم سينمائى يشهده الجميع، يخرج من البيت لشراء أى شىء ويعود ليقف تحت البيت، ينادى بكل ما يملك من صوت زوجته، تنهال من فمه قذائف السب والشتم، قاموس فريد فى مفرداته، قبحه يصك الآذان، فى البدء حاول أخوه ومعه بعض الرجال إثناءه، أو السيطرة عليه، أو منعه من مغادرة البيت، أو إيداعه مستشفى، أو علاجه من حالته، ولم ينجحوا، هرب من المستشفى، آذى الطبيب المعالج، حطم أثاث البيت، آذى زوجته، فر سمير إلى بيت جده، عاشت سامية فى رعب..

خرجت زوجته إلى السوق، وسامية إلى المدرسة، كان نائمًا، حين عادت من السوق ارتفع صراخها ليدوى فى الفضاء ويقتحم البيوت..

علق الحاج حسن برهوم:

- يرحمه الله، أراح واستراح..

وعلق أخوه:

- طلع على عينينا كل ما قاساه فى الحروب..

وعلق الأستاذ حسنى:

- هكذا عقل الإنسان رهين لحظته..

وقال الشيخ على:

- قال الله تعالى «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة» صدق الله العظيم..

قال الحاج حسن برهوم فى نفسه «مات شاهدنا الحى على حرب ٤٨ ، ٥٦ ، ومعركة رأس العش» . .

## ١٣

تمضى الأيام ثقيلة ، نهارها رمادى اللون ، ليلها خابى الزرقة ، يتابع المتعلمون والمثقفون الصحف ونشرات الأخبار ، ضرب مدرسة بحر البقر ، مصنع أبو زعبل ، الزيتية ، فى قعدة الشلل فى مقهى الشجرة يدلى كل بدلوه ، تتجمع الخيوط ، قديمها وحديثها ، خارجها وداخلها ، أصبح الرجل العادى الأمى يعرف أمريكا العدو الشرس وذيلها إسرائيل ، وروسيا الصديقة التى تمدنا بالسلاح وتساعدنا فى إعداد جيشنا ، يردد بعض الشباب «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة» . . يذكرون سقوط الطائرة الليبية فوق سيناء ، جنازة الشهيد عبدالمنعم رياض التى فاقت كل تصور . .

***

فوجئ صابر حفنى - بعد عودته من العمل - باستدعاء مندوب التجنيد له ، ترك له ورقة محددا السادسة فى قسم البوليس . . استغرب صابر ، ذهب فى الموعد ، قال له مندوب التجنيد :

- أنت مطلوب للتجنيد ، سلم نفسك يوم . .

قال صابر :

- لكن . . أنا عندى تأجيل لأن أخى الأصغر مجند فعلاً . .

قال المندوب :

- والله ، لدى أوامر وعلى تنفيذها ، سلم نفسك فى الموعد . .

وقدم له ورقة طلب منه توقيعها . .

اغـتم صـابر، عـاد إلى البـيت لا يدرى كـيف؟ طاشت خطواته، واضطرب تفكيره، عرف أبوه، ضرب كفًا بكف، صرخ:

- والشعب يعيش إزاى.. نأكل تبن وردة وقلنا الحمد لله، والعمل؟؟

لم يتلق رداً، سرح بفكره قليلاً ثم قال لابنه:

- اسمع يا صابر، نعمل كشف عيلة..

قاطعه صابر:

- لا ينفع.. لأنك مازلت فى العمل..

صاح الأب:

- أستقيل، أسوى معاشى، أنا خدمت الشركة ٤٢ سنة، ٦ سنين زيادة.

- كشف العيلة يحتاج وقتاً، والوقت متأخر..

- نبدأ، حتى لو لبست الميرى بعد الإجراءات تخرج..

قال صابر مستاءً:

- أخرج، الجيش تأبيده فى زماننا الأسود..

- نقعد ساكتين، أنت تتجند، وبعد سنة أخوك يتجند، تبقوا ثلاثة فى الجيش.. من يرضى..

قال صابر متضايقًا:

- أسكت يابابا، أنا عقلى توقف.. تفكيرى اتشل..

- روح لأخوك صلاح استنر برأيه.. اخرج.. الخروج يفيدك..

***

يخرج صابر حفنى، يمر على صلاح إمام لا يجده، يمشى، يبتعد عن أرض الحديقة، يمشى فى الشارع الجديد، نظرة إلى الحى القديم، نظرة إلى المساكن الشعبية، نظرة إلى نافذة نوال، يروح ويجىء علهاتراه، تنزل لتلقاه، يروح ويجىء، أحس بالوجل، مشى على الرصيف، وصل إلى آخر المساكن، دخل فى الشارع الفاصل بين المساكن وبيوت الأهالى

مشى حتى آخره، عاد من الجانب الآخر للمساكن، لاحظ شكلها، مثلث قاعدته فى الجنوب، ورأسه فى الشمال، بلوك نوال قبل الميدان بثلاثة بلوكات، أى قبل تلاقى ضلعى المثلث، رفع عينيه إلى أعلى، تخايل له الحى القديم، هو الآخر على شكل مثلث، تبدأ رأسه عند قاعدة مثلث المساكن، تمتد أضلاعه محتوية أرض الجرابيع، والبلدة القديمة، وأرض الحديقة وأرض الفتوة، والنادى، ثم أرض أبى عمة قاعدة المثلث.. لم تأت تسمية المنطقة كلها مربع سكنى عفو الخاطر، المثلثان معا يصنعان مربعاً.. اجتاز رأس المثلث عائدا إلى حيث بدأ، تطلع إلى نافذة نوال، النافذة مغلقة.. أدار ظهره، تطلع إلى أسفلت الشارع، كأنه يرى كتبًا وسطوراً وكلمات، نظرية هندسة، المعطيات، المطلوب، العمل، البرهان.. يرى مسألة جبر وحلها، قاعدة إف، الإنجليزية وهوايل، وهوين، وآنلس والماضى البسيط، والمضارع البسيط والماضى المستمر والمضارع المستمر والمستقبل البسيط والماضى التام والمضارع التام وحسن فخرى يمسك إصبع الطباشير يشرح ويشرح ويعيد الشرح، يحب حسن الإنجليزية ويحب تدريسها، صلاح إمام يعد الشاى فى الميدان، على وفريد وصفوت فى سباق جرى يعودون متهالكين، كامل وصلاح يكتبان نظريات الاقتصاد ويحفظونها، ينتقلان إلى مكان آخر ويحاولان كتابة ما حفظا، لا يقدران، يلعنان المادة ومدرسها..

أعمدة الإنارة العالية هبطت عليهم نعمة من السماء، هربوا من اللمبة نمرة ١٠ ودخان الجاز، كونوا الجامعة المفتوحة، تمتد ساعات المذاكرة من العاشرة ليلاً حتى آذان الفجر، يتخللها لعب الكرة الشراب، المصارعة، العدو، وتقع المفارقات، ماتوا من الضحك عندما قال فريد وهو يرى عربات جمع القمامة قادمة من بعيد:

- كل واحد يمسك حماراً ويميل به ويدخله الشارع القريب منه..

حبذ الغالبية الفكرة، قرب الثالثة كل يوم تأتى قافلة عربات القمامة الصغيرة، صناديق خشبية مستطيلة نوعًا ما، فوق عجلتين يمنة ويسرة، يجرها حمار، تضم القافلة عشرين عربة ويزيد، الرجال والأولاد نائمون فى الصناديق، يقود القافلة حمار يبدو أنه يحفظ الطريق..

عقب فريد:

- اتركوا الحمار القائد..

أمسك فريد بسلبة الحمار الثانى وقاده إلى أول شارع، وأمسك عليٌّ الحمار الثالث فى الشارع الثانى وإبراهيم قاد الحمار إلى شارع ثالث، ورابع، وخامس، ثم الأول مرة أخرى، فالثانى، فالثالث أنهوا المهمة، استمرت الحمير فى سيرها، قال فريد صاحب الفكرة، وزعيم الشلة:

- كل واحد يبحث له عن ساتر..

بعضهم اختفى فى بيته، فتح النافذة أو الشرفة وقف يطل منها، بعضهم تابع العربات عند نهاية الشوارع المطلة على الجرن، بعض الحمير استمرت فى سيرها على خط مستقيم حتى مداخل الدروب، سارت حتى نهاياتها المسدودة وتوقفت، بعضها قام فريد بتوجيهها يمين أو يسار الشارع الدائرى، اعتلى فريد سطح الدور الثانى ببيت أسرته المطل على الجرن، وقف ينظر ما يحدث.

استيقظ أصحاب العربات التى توقفت فى نهايات الدروب، شاهدهم فريد وهم يعودون كل منهم يمسك بلجام حماره، تجمعوا وسط الشارع الدائرى، رآهم يتبادلون الأحاديث التشويح بالأذرع، الكبير يضرب الصغير، توقفوا وهم يسمعون كركرات العجلات بعضها يأتى من يمين الشارع، وبعضها من شماله، تجمعت القافلة، ينتظرون الحمار القائد، يبعثون ببعضهم للدوران حول البلدة القديمة، دخل بعضهم إلى الدروب التى فى الجوانب الأخرى البعيدة.. فقدوا

الأمل فى العثور على قائدهم، مشوا فى يقظة يفتشون، عادوا إلى طريقهم المعتاد..

تجمع طلاب الجامعة المفتوحة، حكى كل منهم ما رآه وتابعه، واستغرقوا فى الضحك حتى صرخ علىّ:

- آه.. قلبى يا ولاد..

توقفوا، بهتوا، يرونه يضع يده فوق صدره جهة القلب، أمسك صفوت به:

- مالك..

- قلبى وجعنى من الضحك..

جلسوا على الطوار الملتف حول الميدان، منهم من يجفف دموعه، ومنهم من يضع يده على فمه لئلا يخرج صوت ضحكاته، ومنهم من شرد ببصره بعيداً..

قال فريد:

- لعبة مسلية مضحكة.. نعملها بكرة تانى..

عادوا إلى رأس المثلث، عند أول بلوك، تناولوا كتبهم من شباك ياسين السمين، وهو يشتمهم ويشيعهم بضحكاته..

***

فى الليلة الثانية، وفى نفس الموعد، جمعهم فريد عندما سمع صوت كركرة عجلات العربات فوق الأسفلت، رفض أغلبهم، صحبة صفوت وعلى وإبراهيم، اجتمع الباقون عند شباك ياسين يتابعون الموقف.

اقترب فريد بهدوء من حمار العربة الثانية، أمسك بلجام الحمار، أدار رأسه ناحية أول شارع، تزامن فى نفس اللحظة إمساك صفوت وعلىّ وإبراهيم بألجمة الحمير، غيروا اتجاهها ناحية الشوارع، وفجأة اهتزت الأرض تحت وقع أقدام جامعى القمامة يتقافزون من داخل

صناديق العربات، ينهالون بالعصى على فريد وعلى وإبراهيم وصفوت الذين ارتفع صياحهم ينبه كل منهم الآخر:

- اجر يا ولد..

جروا متفرقين، وخلف كل واحد منهم أربعة أو ثلاثة أو خمسة من جامعي القمامة.. أفلتوا بإعجاز، عاد المهاجمون، ركبوا عرباتهم، واصلوا المسير..

قال حسن فخرى لصابر حفنى:

- لو شاركتهم كان نصيبك علقة العمر..

وعلق صلاح إمام:

- كنت يا ابنى أسهل صيد لهم، وكانوا يخلصوا عليك..

- قال كامل:

- فريد أس المصايب.. الولد فاقد، ومن يتبعه يفقد مثله.

قال تلميذ لحسن فخرى:

- لو سمحت يا أستاذ حسن، اشرح لى نظرية فيثاغورث..

رد حسن:

- فيثاغورث وعكسها.. معك طباشير..

قدم التلميذ إصبع الطباشير لحسن فخرى ووقف إلى جانبه، ثم قرفص مثله يرى ما يخطه بيده وما يقوله من شرح، جلس كامل وصلاح وصابر داخل الحجرة عند ياسين يشربون الشاى..

خرج صابر حفنى من تأمله الصامت، الشارد، الغارق فى الذكريات على صوت ياسين:

- يقطع الحب وسنينه..

انتبه صابر، أخذ ياسين بين أحضانه:

- ياسين..

ثم فى دهشة أردف :
- متى دخلت الجيش ؟؟
قال ياسين فرحا :
- من شهرين . .
وهو ينظر إلى البدلة الميرى :
- وقبلوك مع تخنك . .
قال ياسين ضاحكًا :
- أنت ضعيف الملاحظة يا صابر . .
ثم لف نفسه فى دائرة برشاقة وخفة قائلاً :
- أنا نقص وزنى عشرة كيلو . . ما أخبار الغرام ؟
قال صابر فى قرف :
- لا غرام ولا يحزنون . .
ثم أردف وهو يتأبط ذراعه ويسبقه بالخطو :
- كلها أسبوع وأبقى ميرى . .
- طلبوك . .

قالها ياسين فى سرعة ولهجة مستغربة، هز صابر رأسه، وقفا إلى جوار شباك أسرة ياسين، خرجت أخت ياسين الصغرى، لم تتعد الخامسة، حملها بين ذراعيه وقبلها، دعا صابر لتناول الشاى، شكره، حياه وانصرف عائدا ليلقى النظرة الأخيرة، علَّه يراها . .

## ١٤

قبل أن يرفع رأسه ناحية الشباك، تناهى إلى سمعه صوت صفير يعرفه، تلفت نحو الرصيف الأوسط للشارع رآها، اندفع للعبور فى

لهفة، توقف فجأة على صوت كلاكس سيارة مرقت سريعًا وخلفته فى اضطراب وهلع..

قابلته فى منتصف الشارع، تناول يدها فى يده، اتجها إلى الشارع المقابل للمساكن أمامهما يسرعان فى خطواتهما، يشعر بالاضطراب، يشدها، سارا مع الشارع الدائرى، خرجا من شارع آخر فى الناحية الأخرى من البلدة، سارا فى عدة شوارع متقاطعة، يحدثها عن لهفته للقائها، وتحدثه عن شوقها الجارف، بين برهة وأخرى ينظر فى عينيها الساحرتين، يرمق شفتيها القانيتين المختلجتين، يشعر بالدفء والحنان والرقة فى تعانق أصابع يديهما، قال:

- ربنا يستر..

- لم أعد أخاف..

ثم أردفت فى جسارة:

- حتى لو رآنا أحد..

ذهل وذعر صابر من جرأتها، لم يبد ملاحظة، ولم يعلق..

- أبى يعرف، وزوجته تعرف، وكل المساكن تعرف.. ممن أخاف إذن.

ازدادت حيرته، توقف وسأل:

- قلت أبوك يعرف..

- نعم..

- كيف؟ وهل سكت..؟ ماذا حدث؟

قالت وهى تضغط يده، ثم تتركها فيقبض عليها بيده:

- قالت له زوجته ما سمعت به، لأول مرة لم يضربنى، دعانى وأجلسنى أمامه وقال: «يانوال.. أنت كبرت، وتعرفين مصلحتك، وتقدرين موقفك، إذا كانت علاقتك به ستنتهى متفقة والشرع والعرف فأنا موافق» صحت فرحة «إن شاء الله يا أبى.. إن شاء الله» عقب وقال

«على كل حال أنا في انتظاره».

ركل صابر حجراً بقدمه، دق الأرض بكعب حذائه:

- يا خسارة.. ياميت خسارة..

توقفت قدماها، جذبت يدها، استدارت وواجهته:

- صابر.. أتتخلى عني..

- غصب عني يانوال، ليس في يدى شيء..

قالت بغضب:

- لم أطالب بشيء الآن.. مجرد كلام، قراءة فاتحة..

- ولا هذه أقدر عليها.. أنا مطلوب للجيش يانوال..

شردت نوال، عقدت ذراعيها فوق صدرها، لفت حول نفسها، تطلعت إلى السماء، عانقت نظراتها الأرض.. اندفعت الدموع من عينيها، أجهشت بالبكاء..

أحاطها صابر بذراعه، انتحى بها جانباً فوق الرصيف، أخرج منديله يجفف لها دموعها قال حزيناً:

- البلد في حرب، لا أدرى إن كنت سأعود، أو أموت..

أشاحت بيدها:

- سواء عدت أو لم تعد، يهمنى الارتباط بك.. أنا أحبك يا صابر..

- وأنا أحبك يا نوال..

- خلاص.. تقدم واطلبنى، أنتظرك مائة سنة يا صابر.. أتحدى الكون كله وأنتظرك..

- فكرى بالعقل يا نوال..

- أى عقل، كنت فاكرة إنك بتحبنى وخايف على، كنت بمجرد ما تطلبنى، صرمة قديمة أقدم صرمة قديمة فى بيتنا أحشى بها فم زوجة أبى.. قراءة الفاتحة تقطع لسانها المبرد..

أمسك صابر يدها، دعاها للعودة، قال:

- كوني على ثقة من حبى لك يا نوال.. دعى لى فرصة، أتكلم مع أبى، مع أمى، مع صلاح وحسن، نبحث عن..

- أنا أقدر أعتمد على رأى أصحابك، يعرفوننى لكن..

- أبى طيب جدًا يانوال.. لم يرفض لى طلباً من قبل..

قالت فى هدوء مشوب بالبراءة:

- يبقى محلولة..

أوصلها صابر حتى البيت، وقف فى مدخل البلوك، تابعها وهى تصعد الدرجات متلفتة نحوه وهى ترشقه بالقبلات الطائرة..

***

دق جرس الباب، فتحت مها مرحبة، قادته إلى حجرة الصالون، رحب به صلاح والأستاذ سلامة حماه، جلس يشاهدهم وهم يلعبون «الكونكان»، رمق نقوداً ورقية وفضية وسط الترابيزة، قال:

- تلعبون على فلوس..

قال الأستاذ سلامة:

- تسلية بدون فلوس لا طعم لها..

قال صلاح:

- تحب تشاركنا اللعب..

هز صابر رأسه.. ينظر إليهم، يتراجع بظهره إلى مسند المقعد، ينظر بإمعان إلى صورة زفاف مها وصلاح، يتأملها، ينظر إلى مها، شتان بين الصورة والحقيقة، أكسبها الزواج جمالاً وفتنة، تبدلت نحافتها بقوام ممشوق، اكتسب أسلوبها رقة ولباقة، هز رأسه، دهمه همه، استولى عليه، بدا قلقًا، قام وأفسح لنفسه طريقًا إلى الشرفة، وقف ينظر إلى الشارع، ارتكز بكوعه على إفريزها، إلى يمينه يرى جزءاً من

الجرن، بقعة خضراء، تذكر أن الحكومة أقامت خندقًا، زرعت فوقه الحشائش، يرى بوابته الحديدية، تابع الأعمدة التى تحمل كابل الكهرباء من شمال البلد، امتد بصره أكثر بعداً، مدخل درب العمدة، أول بيت فى الدرب، شرفة الدور الثانى، كأنه اكتشف شيئًا، استدار وقال لصلاح:

- يمكنك أن ترى أختك من هنا..

ردت مها:

- نراها وترانا..

قال صلاح منهمكًا فى اللعب:

- كل واحد يضع ورقه، «كنكان»..

مد يده وجمع النقود، دسها فى جيبه وهو ينظر إلى صابر ويقول:

- تعال يا ابنى، نبقى أربعة..

قال صابر متهكمًا:

- فايق ورايق..

رد صلاح:

- وانت مالك معكنن، أبوك مات..

قال الأستاذ سلامة بعد الانتهاء من تفنيط الكوتشينة، ووضعها وسط المنضدة:

- فرّق يا صلاح..

وجه صابر سؤاله لصلاح:

- تفتكر كشف العيلة ممكن يخلص بسرعة..

اتسعت عينا صلاح وهو يرمقه متسائلاً:

- دورك وصل..

هز صابر رأسه، عقب صلاح غير آبه:

- شهرين ثلاثة ويمكن أكثر..

وانهمك في اللعب..

عاد صابر من الشرفة، اجتاز طريقة بين الأستاذ سلامة والترابيزة، استأذن منصرفًا وهو يشعر بالأسف والأسى، قام صلاح وراءه وقال:

- أنتظرك غدا في المكتب، تعال نبحث الموضوع..

وعده صابر بالزيارة وانصرف..

## ١٥

يشعر عزوز بالسعادة بعد أن أدى صلاة الجمعة، أسعده الحظ أن جاءت صلاته إلى جانب الحاج حسن برهوم، خرجا من المسجد معا بعد أن صافح الحاج حسن الشيخ على وأثنى على خطبته، مشى إلى جواره، بسط يده يدعوه إلى تشريف بيته، نظر الحاج حسن إلى البيت، المواد من رمل وزلط وأسمنت داخله تملأ المكان، قال بسرور:

- ربنا يتم لك على خير يا عزوز..

- تسلم وتعيش يا حاج..

وهتف الحاج حسن:

- شدى حيلك يا أم سماح..

اتجهت أم سماح نحوه تتعثر في ذيل جلبابها الأسود، تلملم الطرحة، دنت وخطفت يده لتقبلها جذبها بسرعة قائلاً:

- أستغفر الله..

وأردف:

- يا ترى سماح بخير ؟

- تقبل يديك يا حاج..

يمشى الحاج حسن إلى يمينه، إلى يساره، يلقى التحايا ويتلقاها، إلى يمينه، إلى يساره عدد من الرجال يسكنون بالقرب من بيته، ويسعدون بالجلوس معه أو مصاحبته فى أى طريق، يشعرون بالعزة، والفخر لكونهم فى صحبته..

بعد أن شيع عزوز الحاج حسن ومن معه، انهمك فى جمع الحصير الذى ملأ الشارع - وقطعه - مع غيره من الذين يتطوعون كل جمعة فى كنس الشارع ورشه بالماء وفرش الحصير ثم جمعه بعد الصلاة..

قال أحد المصلين لرفيقه:

- غالبًا الجمعة القادمة تكون الصلاة داخل المسجد فقط.. لازم الواحد يحضر بدرى..

سأل رفيقه:

- ما السبب؟

- سيمتلئ الشارع بأكوام الدقشوم، سيبدأ رصف الشارع فى هذه الجهة..

وصلت الكلمات الأخيرة إلى أذنى عزوز فاقترب وسأل:

- صحيح يا أبو إسماعيل..

قال أبو إسماعيل:

- فاضل عِبُكم يا شيخ عزوز وينتهى رصف داير الناحية كله..

تطلع عزوز إلى نجار المسلح وقال:

- شد حيلك يا أسطى، غرضنا نرمى السقف قبل الشارع ما ينشغل..

وأعاد ما سمعه وأكد مرة أخرى على سرعة العمل..

***

قبل أن ينتهى من تناول كوب الشاى، وضع عزوز الكوب وهب

واقفا وسيارة سماح الملاكى تقف أمام البيت، هرول وفتح لها الباب، تلقف يدها مصافحًا:

- البقية فى حياتك..

- حياتك الباقية يا عم عزوز..

خطت سماح نحو أمها، فستانها الأسود أنيق، حذاؤها الأسود له كعب يرفعه قليلاً عن الأرض، حقيبة جلدية سوداء معلقة فى كتفها الأيسر، اقتربت من أمها التى وقفت ووسعت ما بين ذراعيها الممدودتين، احتضنتها، قبلتها فى وجنتيها، التفتت سماح إلى السائق قائلة:

- تعالى لى بعد العصر يا عم عبده..

أمسك عزوز بذراع عم عبده:

- الشاى جاهز يا عم عبده..

- اعذرنى يا عم عزوز، عندى شغل..

- اشرب الشاى وتوكل على الله..

ونادى عزوز على ابنته:

- هات الشاى يا بنت..

جاءت زينب بالصينية التى كانت معدة سلفًا للنجارين، تناول عزوز كوبًا وقدمه لعم عبده رشف عدة رشفات، قال:

- ربنا يديم المعروف..

قال عزوز متداركًا:

- لمؤاخذة يا عم عبده، نسيت أعزيك، البقية فى حياتك..

- حياتك الباقية، كل من عليها فان يا عم عزوز..

أكمل عزوز:

- ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام..

نزلت زينب بالصينية فارغة من الأكواب، قال عزوز:

- قدمت شاى لسماح يا بنت..

- شاى مخصوص يجهز لها حالاً..

- همّى بسرعة..

تبادلت سماح وأمها بعض الكلمات، تركتها أمها على أثرها واتجهت نحو بيت أم كامل، غابت وسماح واقفة، دعاها عزوز للجلوس بعدما فرش الحصيرة ووضع فى جانب منها وسادة:

- شكرا يا عم عزوز..

قال مشدداً على دعوته:

- اتفضلى، زينب تجهز لك شاى مخصوص..

- واحشانى موت، نادى عليها..

نادى عزوز ابنته، خرجت مبتسمة بعدما غيرت جلبابها بجلباب نظيف، يبدو عليها أنيقًا نوعًا ما، دست قدميها فى الشبشب «زنوبة»، سماح وزينب التصقتا فى عناق وقبلات، وهطلت الدموع..

- واحشانى يا زينب..

- إنت أكتر يا سماح.. فرقتنا الأيام..

- كل واحدة ونصيبها..

اتجهت سماح ويدها فى يد زينب نحو مجلس عزوز، وقفت قبالته وقالت:

- لى طلب عندك يا عم عزوز..

- تحت أمرك، خدامك..

- العفو.. أنا.. ياريت توافق إن زينب تيجى معايا.. أنا بقيت وحدانية وأمى رافضة تعيش معايا..

- موافق، لكن..

قاطعته سماح بثقة واعتداد :

- تشتغل فى المصنع ، كل يوم نروّح سوا ونرجع سوا ، ولا يكون عندك أى خوف . .

- خوف . . دى أمنية ، بعد يومين ثلاثة أوصلها لغاية عندك . . نكون خلصنا السقف . .

- وعد يا عم عزوز ؟ . .

- وعد يا سماح . .

اقتربت أم سماح من ابنتها ، همست فى أذنها ببضع كلمات ، قالت لعم عزوز :

- اتفقنا خلاص . .

- اتفقنا .

وهى تستأذنه ، هتف :

- طيب اشربى الشاى . .

- عندى مصلحة أقضيها وأرجع لك . .

تركته واتجهت خطواتها - لأول مرة بعد سفر كامل ، وانتقال عزيزة - لمدخل البيت . . قابلتها أمه على السلم مهللة :

- يا ألف مرحب ، البيت نور بك . .

- منور بأهله وأصحابه . .

تقدمتها أم كامل إلى حجرة الكنب ، دعتها للجلوس قائلة :

- أعمل الشاى حالاً . . يا ألف مرحب يا بنتى . .

- الله يرحب بك . .

وضعت أم كامل كنكة الشاى فوق «وابور السبرتو» ، عادت تكرر ترحيبها بسماح ، جلست على حافة الكنبة ، سألتها سماح عن كارم :

- أبو سمير فى شقته . .

- ممكن تنادى عليه، أصلى محتاجة له فى موضوع..

تركتها أم كامل، تحسست سماح الكنبة بيدها، رفعت عينيها إلى صورة كامل فى إطارها الخشبى، تدفعها اللهفة إلى تناولها من فوق الحائط وتقبيلها، ألقت نظرة سريعة إلى الشرفة حيث كان يقف، عادت بسرعة إلى الصورة، ودت لو أخذتها ودستها فى حقيبتها، لا.. الحقيبة صغيرة، فى صدر فستانها، لو كانت صغيرة فى حجمها ما تركتها..

عادت أم كامل وفى أعقابها كارم، صافحها مرحبًا، جلس على الكنبة المقابلة وسماح تقول له:

- أنا مدينة لك بفضل فى حياتى..

قال كارم مندهشا:

- فضل.. البقية فى حياتك أولا..

- تعيش وتسلم..

- أى فضل إن شاء الله..

- فضل مساعدتى فى استخراج البطاقة الشخصية..

- خدمة بسيطة..

- خدمة العمر يا أبو سمير، يا ترى سمير عمره كم سنة؟

- ثلاثة..

- ربنا يحميه..

وضعت أم كامل صينية الشاى إلى جوار سماح بعدما قدمت لكارم كوبه:

- اتفضلى يا بنتى.. اتفضلى..

- يزيد فضلك..

أمسكت الكوب بيدها وقالت لكارم:

- الحقيقة، أنا فى نفسى اعتزاز كبير بك وبأخيك كامل وأنت يا أم كامل والحاج حنفى.. كلكم لكم معزة خاصة..

قالت أم كامل:

- ربنا يديم المعروف.. ويسعدك..

وقال كارم:

- أنا وكامل صبيان، أنت اختنا يا سماح..

- الحقيقة يا كارم، أنا محتاسة وغرقانة، زوجى الله يرحمه ترك حاجات وحسابات ومصنع فيه عمال وموظفين، وأختك يا دوب تفكيرها محدود، مدير المصنع يقول لى، وقعى، أوقع أوراق.. كل التعاملات أوراق، وأنا خايفة..

قالت أم كامل:

- لأ.. لأ يا سماح، أوعى تمضى أى ورقة إلا أما تعرفى فيها إيه..

- مشكلة يا أم كامل..

قال كارم:

- فعلا مشكلة..

- وحلها فى وجودك معايا.. تشرف على المصنع، تفهمنى، تدينى معلومات قبل ما أوقع أى أوراق..

أشار كارم إلى عينيه وقال:

- من عينى يا سماح.. أقدر أفوت عليك بعد ما أخرج من الشغل.. ولغاية ما تزهقى..

- ياريت تقدر تأخذ إجازة، أسبوع، أسبوع واحد نرتب الأمور وبعدين يبقى بعد الظهر..

- أحاول.. اشربى الشاى..

رشفت سماح الشاى، وضعت الكوب فوق الصينية، عبثت

بحقيبتها الجلدية، أخرجت بطاقة صغيرة، قدمتها لكارم:

- عنوان البيت، المصنع ورقم التليفون.. اطلبنى ونتفق..

وقامت شاكرة ومؤكدة على اتصال كارم بها، حمَلت أم كارم أمانة نقل سلامها لعم حنفى.. ودعها كارم حتى باب البيت، وعاد إلى شقته.

## ١٦

عصر يوم الخميس، أم صابر تجلس فى الصالة فوق الحصيرة، إلى جوارها بنتاها فتحية ونجوى «رومية» الاسم الذى أطلقه عليها حسن فخرى، اختاره لإعجابه بشعرها الأصفر الطويل، وخفة دمها، ورشاقتها، تستند أم صابر بظهرها إلى الحائط ، ترتكز بكوع ذراعها الأيمن فوق ركبتها اليمنى بينما نامت ساقها اليسرى على الأرض، زوجها حفنى يجلس فى حجرة الضيوف على كنبة مرتكنًا بكوعه على المسند تسند كفه اليمنى رأسه، يجلس صابر على الكنبة المقابلة، مشبكًا ذراعيه فوق صدره، مضطجعًا على المسند، تهتز قدماه العالقتان فى الهواء، صوت المذياع يأتى من باب الشرفة المفتوح يبث أغنية وطنية حزينة..

طرقات إصبع على باب الشقة، نحّت فتحية الجرنال الذى كانت تتصفحه، قالت أمها:

- ادخل.. الباب مفتوح..

دخل حسن فخرى، وقفت فتحية تاركة الجرنال على الأرض، ووقفت رومية، أسرع إلى أم صابر هاتفًا:

- والله ما أنت قايمة من مكانك..

وضع أمامها لفة كبيرة، صافحها، ثم استقام وصافح فتحية ورومية،

خرج صابر لاستقباله بالأحضان، دخلا الحجرة، صافح حسن عم حفنى، تناول يده وقبلها، عاد إلى الصالة قائلاً:

- فطير مشلتت بالهنا والشفا..

قالت أم صابر وهى تفك اللفافة:

- تتعب نفسك لأجلنا..

- أنتم الخير والبركة..

ثم عاد إلى داخل الحجرة، جلس إلى جوار عم حفنى:

- واحشنى يا رجل يا عجوز..

واتجه بوجهه إلى صابر:

- وأنت يا مضروب..

قال صابر:

- ما توقعت حضورك اليوم..

- خلصت مهمتى، قلت أرجع، بعت إللى حيلتى وربنا يهيئ ما فيه الخير..

قال عم حفنى:

- خلاص نويت.. ربنا يوفقك..

قال حسن:

- عقبال صابر واخواته..

قال عم حفنى:

- أخوك قسمته فى الجيش..

نقل حسن عينيه فى سرعة من وجه عم حفنى إلى وجه صابر:

- معقول.. أخوك يا ابنى على ذمة الجيش.. مجند..

قال صابر:

- معقول.. غير معقول.. أسلم نفسى يوم السبت..

قال عم حفنى بأسى :

- والسنة الجاية يحصله أخوه الثالث ، ونموت إحنا . .

قال حسن :

- أسوأ خبر سمعته فى حياتى . .

خيم الصمت ، أرهفت الآذان لطرق على باب الشقة ، هتفت أم صابر :

- ادخل . . الباب مفتوح . .

جاء صوت عرفه صابر لأول وهلة ، لكنه لم يصدقه . .

- الأستاذ صابر موجود . .

قامت رومية ، سبقها صوت أمها :

- ادخلى يا بنتى . .

فتحت رومية الباب ، لحق بها صابر ، وجدها أمامه وجها لوجه ، نوال وصاحبتها :

- نوال . . اتفضلى . . ادخلى . .

ساد الارتباك لحظات ، نوال فى ثقة واعتداد بالنفس ، صديقتها وجلة ، صابر مضطربًا ، صافحهما ، قدمها إلى أمه :

- نوال يا أمى . . ، أمى يا نوال . .

قامت أم صابر ، صافحتها ، صافحت أختيه وهو يقدمهما :

- فتحية الكبيرة ، نجوى ونناديها برومية . .

ثم قادهما إلى حجرة الضيوف ، قدمها لأبيه :

- نوال يا بابا . .

اعتدل عم حفنى فى جلسته التى لم يغيرها قدوم حسن فخرى ، نظر إلى نوال مليًا وقال ضاحكًا من خلال طقم الأسنان الأبيض :

- ما شاء الله . . اتفضلى جنبى . .

جلست نوال إلى جوار عم حفنى بعدما صافحت حسن فخرى ،

وصافح حسن صديقتها، ثم جلست صديقتها بجوارها، ظلت أم صابر وبنتاها فى الصالة، ترنو رومية بعينيها إلى نوال وتصفها لأمها وأختها.

- قمر، عيونها خضراء، قصتها فوق عينها الشمال، فمها مسمسم.

سكتت رومية بعدما لكزتها أمها بيدها فى جنبها، تستمعن إلى الحوار الدائر:

- زيارتى مفاجأة يا عمى..

- وأى مفاجأة يا بنتى، لكن والله مفاجأة سارة، تشرح الصدر وتفرح القلب..

قال حسن فخرى معلقًا:

- غزل مفضوح يا عم حفنى..

يقهقه عم حفنى، وبعدما خفت ضحكته قال:

- الناس تتغزل فى القمر وبينها وبينه بلاد وبلاد، القمر فى بيتنا، لازم الحجر ينطق..

قال صابر لأبيه:

- خفف يا والدى، خفف..

تضحك نوال وتقول لصابر:

- أنا وعمى أحرار.. ما دخلك؟؟

وتهمس لعم حفنى:

- أنا سعيدة برأيك فىَّ يا عمى، وأحب أسمع صوتك وضحكتك..

- اسمحى لى أناديك بقمر..

- قمر .. نجمة.. اختر ما يعجبك..

تضحك ويشاركها عم حفنى الضحك، ينظر صابر إلى نوال متضايقًا، تقول وهى تمسك يد عم حفنى:

- أنا ضيفته، اطلع من بيننا..

قام صابر واتجه إلى الشرفة، ارتد فى فزع برأسه إلى الوراء، نظر إلى حسن ودعاه:

- حسن .. تعال..

خرج حسن إلى الشرفة، ينظر فى كافة الاتجاهات، هاله ما رأى..

كأيام الحرب، تجمعات الشباب أمام أبواب البيوت، عند ناصيتى الشارع، تجمعات البنات فى الشرفات والنوافذ، تجمعات النسوة أمام أبواب البيوت، كل العيون تتركز على البيت، على الشرفة، على صابر وحسن، كل الأفواه تتحرك، كل الصبية الصغار يتحولقون حول التجمعات ينصتون إلى ما يقال..

قال حسن لصابر:

- دخلت تاريخ أرض الحديقة، لأ.. أرض الناحية كلها.. عند الناصية ناحية الميدان شباب المساكن، عند الناصية ناحية الجرن شباب البلدة، نساء وبنات الشارع.. يا ...

قاطعه صابر متبرمًا متضايقًا:

- أرجوك يا حسن.. أرجوك..

ثم دخل وأمسك بنوال من يدها:

- قومى.. قومى أرجوك وعودى لبيتك..

جذبت يدها:

- أصول ضيافتك يا صابر..

- لا أصول ولا يحزنون.. قومى..

اتجهت بعينيها إلى عم حفنى:

- شايف ابنك..

صاح عم حفنى فى صابر:

- دعها يا ولد.. روح هات حاجة ساقعة حالاً..

نظرت إلى صابر تغيظه:

- شايف الكرم..

عاد صابر إلى الشرفة، قال حسن:

- الموالد انفضت..

تحرر صابر من غضبه، واضطرابه، دس يديه فى جيبيه، دخل وجلس على حافة الكنبة، دخل حسن فخرى، جلس فى الجانب الآخر قرب منضدة صغيرة تحت شباك المنور:

- أهلاً وسهلاً يا نوال.. ما اسم صديقتك؟

- هند.. كامل يعرفها..

قال حسن مرحبًا:

- أهلاً يا هند..

ردت هند تحيته وهو يقول:

- والله الولد كامل له وحشه كبيرة..

قالت نوال:

- أنا زعلت لما عرفت بسفره..

تطلعت إليه منتبهة، رنت إلى صابر بعينيها:

- أكيد هو حسن فخرى..

قال صابر:

- هو بعينه، ما أنا قلت..

قاطعه حسن فخرى محدثًا نوال:

- أناحسن فخرى، ليسانس آداب قسم إنجليزى، بعد شهر بالضبط أستلم وظيفتى مدرس، وخاطب..

قالت نوال مبتسمة:

- خسارة..

علق حسن:

- خسارة فيَ الوظيفة، أو خسارة..

قاطعته:

- لأ.. لا أقصد..

وبعد برهة قالت:

- خسارة عدم وجود كامل و.. و..

قال صابر مكملاً:

- صلاح إمام..

قال صابر:

- صلاح إمام أولنا فى الوظيفة، وأولنا فى الزواج.. وعن قريب أولنا فى الأبوة..

تنبهت إلى تحديق عم حفنى فى وجهها، ومتابعة كلماتها وحركاتها، قالت ضاحكة:

- عجبتك يا عم حفنى..

قال:

- صوتك يجنن..

وأطلق ضحكة مجلجلة، كتمها عندما أحس بأن طقم أسنانه سيفلت من فمه..

قدمت رومية بزجاجات الكوكاكولا، وزعتها مبتسمة وخرجت، أشار صابر بيده لنوال وقام إلى الشرفة، تبعته ووقفت إلى جواره:

- أنت مجنونة..

- قلت أشوفك قبل ما..

توقفت برهة ثم قالت:

- وحشتنى.. حسيت إنى لازم أشوفك..

- وسُمعتك.. وكلام الناس..

- لا يهمنى.. لا يهمنى أى شىء

- معقول يا نوال تفكرى بهذا الشكل..

غلفت الدموع صوتها:

- خايفة من بكره يا صابر.. خايفة..

اتجه صابر بالحديث وجهة أخرى عندما لاحظ الدموع تنبت فى مآقيها:

- أعجبتك أسرتى..

وهى تنظر إلى أبيه:

- والدك شربات..

ثم عادت إلى الداخل، وضعت زجاجتها نصف فارغة نصف مملوءة، مدت يدها لعم حفنى مستأذنة:

- سلام يا عمى..

وقفت هند، استبقى عم حفنى يد نوال فى يده وقال:

- زورينا أى وقت يا بنتى..

تبادلوا المصافحة، خرج صابر فى وداعهما، جلس حسن إلى جوار عم حفنى متسائلاً:

- ما رأيك..؟

- خرَّجت الهموم من دماغى، بنت حلال..

عاد صابر سريعًا:

- تصرفها تصرف مجنون.. الحمد لله إنى ماشى يوم السبت..

- يا صابر..

أطلق النداء، دفع الباب ودخل، حيا أم صابر وبنتيها، انضم إلى حسن وصابر وأبيه

قال حسن فخرى لصلاح:

- فاتك نصف عمرك..

قال بعد أن صافح عم حفنى:

- عرفت.. الخبر أذاعته وكالات الأنباء..

قال عم حفنى ضاحكًا:

- تبقى والدتك..

قال صلاح:

- نفسها تفرح فيه.. على كل حال ألف مبروك..

أردف وهو يتجه نحو باب الخروج:

- عن إذنكم..

صاح حسن:

- إنت مستعجل..

ضم راحتيه خلف ظهره وتمطى مجيبًا:

- حمايا فى البيت، أكسب منه قرشين يفيدونى.. نشترى حاجات المولود.

قال حسن فخرى:

- تحب تأكل مشلتت..

- طبعاً.. أنا شميت ريحته..

تداخل صوت أم صابر مع صوت حسن، قالت:

- اتفضل، الفطير موجود..

- انتظرنى.. بعد نصف ساعة أكون عندك ومعى المشلتت..

- أنا فى انتظارك.. إياك تتأخر..

انصرف صلاح إمام إلى بيته، وانصرف حسن فخرى بعدما اتفق مع صابر على اللقاء عند صلاح بعد نصف ساعة، خيم الحزن على بيت عم حفنى من جديد، ولاذ كل من فيه بالصمت..

## ١٧

يفكر صابر طويلاً، قضى الليل ساهراً قلقاً، يفكر كثيراً فى كامل، تحدثوا طويلاً أمس فى لقائهم فى بيت صلاح إمام، كتبوا ثلاث رسائل، كل واحد قال فى رسالته ما فى نفسه، أمنياته وأحلامه، مشروعاته الحياتية القريبة والبعيدة، كتب له حسن فخرى عن قرب زواجه من نبيلة، وبشره صلاح إمام بقرب وصول ولى العهد، وكتب صابر عن استدعائه للجيش، وأنهم قد ضربوا عرض الحائط بالتأجيل الذى حصل عليه منذ سنوات بسبب تجنيد أخيه الأصغر، وسوَّد أكثر من صفحتين بيضاوين عن زيارة نوال وصديقتها هند لبيته، لقاؤها بأسرته وحسن فخرى، وفى نهاية الخطاب لعن الفرقة، الغربة، سوء الحال، ضغط الحاجة التى تدفع أى إنسان إلى الرحيل..

ينظر إلى الخطابات الثلاثة، كتبت ووضعت فى مظاريفها، ألصقت عليها طوابع البريد، أغلقت، قال صلاح وهو يقدمها إليه ليلقيها فى صندوق البريد:

- لولا العبد لله ما كتب أحد منكما خطابه.. كله على حساب المحل.

- ربنا يجعله مفتوح دائما بحسك..

قالها حسن فخرى، ابتسمت مها قائلة:

- ربنا ما يفرق بينكم أبداً..

قال حسن فخرى فى تؤدة كمن يلقى بموعظة:

- سنة الحياة ما اجتمعنا إلا لنفترق، وما افترقنا إلا لنجتمع..

قال صابر ممازحًا:

- نعم، اقتبس من قراءاتك الإنجليزية واعمل علينا واعظ..

قال صلاح إمام فى صوت خشن ضاحكًا :
- اسكت يا جاهل . .

***

تناول صابر حفنى إفطاره ، كوب شاى سادة ، قطعة بقسماط ناشفة ، حمد ربه ، ارتدى القميص والبنطلون ، والحذاء دون جورب ، أخذ الخطابات الثلاثة ، عزم على التوجه لزيارة أسرة كامل بعد إيداع الخطابات صندوق البريد ، قبل صلاة الجمعة . .

لم تمر عليه بسهولة ملاحظة أبيه بالأمس عن صوت نوال «صوتك يجنن» يتصنت ، كأنه يسمع صوتها فى أذنيه ، تطلع ناحية نافذتها المغلقة وهو فى الطريق ، وصل إلى الميدان ، أودع ببطء الخطابات فى الصندوق المعلق إلى جانب المكتب ، وقف ، تأمل ، لاحظ أن تخطيط الحكومة لبناء المساكن كان قاصراً ، شملت الخطة مكان مكتب البريد ، ومكان لإدارة الإشراف عليها ، وأغفلت إقامة مسجد ، كل من يبغى الصلاة من سكانها يتجه إلى مساجد البلدة ، أو يضطر إلى ركوب المواصلات للصلاة فى مساجد بعيدة عن الحى ، أوعز التقصير ربما للسرعة التى ظهرت بها الفكرة والسرعة فى التنفيذ ، وربما . . . ، اغتالت تفكيره رجفة ، وتراءى له هجمات زوار الفجر للقبض على أفراد جماعة الإخوان المسلمين .

قبل عدة سنوات هب مذعوراً من نومه ، صوت برطعة أقدام على السلم ، فتح النافذة الصغيرة المطلة عليه ، فوجئ بماسورة مدفع رشاش تصوب نحو وجهه وصوت أجش يأمر :
- أقفل الشباك . .

أطاع على الفور وجسده ينتفض ، التفت حوله أسرته ، وهو يرتعش قال :
- معهم بنادق ومدافع . .

أغلق أبوه كل الشبابيك، أطفأ أنوار الونّاسات الخافتة فى حجرة نومه مع الصبيان، وحجرة نوم زوجته مع البنات، فتح بهدوء وحرص زجاج وشيش البلكونة، قصر قامته بثني ركبتيه، أطل وإفريز البلكونة يداريه، لمح عدة سيارات يعرفها جيداً، وبعض الضباط والعساكر، سمع صوت ابن جارهم يستغيث من الضرب المبرح الذى يتلقاه، تراجع في هدوء وبطء، جذب ضلفتي الشيش وعاد إلى زوجته وأولاده قائلاً فى همس:

- نطُّوا من فوق سطح بيتنا إلى سطح بيت عبدالونيس، عساكر نزلوا من السطح وعساكر دخلوا من الباب وقبضوا عليه..

يعرفون جميعًا أن عدة محاولات فشلت من قبل فى القبض على ابن عبدالونيس، ما أن يحس بهم، أو بحركة غير عادية فى الشارع كأن يلمح وجهًا لا يعرفه، أو غريبًا يقطع الشارع جيئة وذهابًا، أو تجمعًا من شخصين أو ثلاثة عند أى من ناصيتى الشارع، كان يعرف طريق هروبه جيداً، يصعد إلى السطح، يقفز منه إلى أسطح البيوت المجاورة، يهبط درج بيت بابه يفتح على الشارع التالي، يخرج من بابه مهرولاً ويختفى فترة تطول وتقصر حسب الأحوال..

دخل صابر البيت، صعد الدرجات، نقر على زجاج باب الشقة، فتحت أم كامل مرحبة:

- أهلا يا أستاذ صابر، تفضل..

قام لاستقباله أبو كامل، يتوكأ على عصا فى يده اليسرى، مد يده وصافحه، قال صابر وهو يقترب من الكنبة:

- ألف سلامة يا عم حنفى..

قال عم حنفى، بعدما جلس بجانب صابر:

- الشيخوخة ظهرت مرة واحدة..

- ربنا يطول عمرك، ويمتعك بالصحة..

تبادلا بعض الأحاديث عن كامل، وعن بقية الأصدقاء، سرَّه نبأ تأهب حسن فخرى للزواج، وخبر قرب ولادة مها زوجة صلاح إمام، وقبل أن يتحدث عن نفسه، دعا له عم حنفى:

- ربنا يوفقك لبنت الحلال..

قال صابر:

- لما أخرج من الجيش .. إذا خرجت..

قال عم حنفى بدهشة:

- أعرف أن عندك تأجيل لغاية ما يخرج أخوك..

أفسح صابر بينه وبين عم حنفى، وضعت أم كامل صينية الشاى وانصرفت، أمسك صابر بكوب الشاى بين كفيه، يقول فى أسى:

- الظاهر رجعوا فى كلامهم..

شرد أبو كامل قليلاً، ثم ارتد ذهنه فقال فى تعجب:

- آه افتكرت، تصور من شهر تقريباً بعثوا لأخيك كامل استدعاء..

تقابل كارم مع مندوب التجنيد وأخبره بسفر كامل، استفسر عن السبب بعد أن أخبرمندوب التجنيد بحصول كامل على إعفاء نهائى..

- فعلاً كامل معه إعفاء نهائى..

- الموضوع أنهم فى ربكة، قال لى كارم أن بعض السجلات احترقت..

ضرب صابر جبهته بيده وقال:

- ياه، الواحد أفكاره مشتتة، أنا قرأت الخبر فى الجريدة.. حريق دار الحفظ..

عقب أبو كامل مبتئساً:

- كلنا، كل الناس تنسى، العقول بقت فى البطون، أو فى الأقدام،

الناس تحمل هم الأكل، الشرب، الغلاء، طوابير الجمعية، اللحم له طابور، الصابون له طابور، السكر له طابور، القماش الزفير، الكستور، الدمور، أرخص الأقمشة لها طابور، وزاد وغطى أزمة الجاز، تتصور، إحنا عملنا في المنور كانون، مصائب..

قال صابر مكملاً:

- والخبز يا عم حنفي..

- مشكلة الخبز لقيت لها حلاً، أنا وبعض الرجال بعد صلاة الفجر نأخذ طريقنا للطابونة نحجز دوراً، نقعد على الأرض لغاية ما يهل دورنا، نقف ونأخذ حصتنا..

قال صابر ورائحة الخبز الساخن بالسمن والسكر تغشى فتحتى أنفه:

- أمي حمدت ربنا إن الفرن مازال باقيًا في المنور، لكن المشكلة في الحصول على الدقيق.. الله يرحم أيام زمان..

شكر صابر عم حنفي بعد تناوله الشاي، استأذن منصرفًا، شيعه حتى الباب، صافحه صابر قائلاً:

- آراك على خير يا عم حنفي..

- تصحبك السلامة يا ابني، وربنا يقصر أيامك في الجيش، وترجع لأهلك..

هبط صابر السلم بينما عاد عم حنفي يجفف دموعه متخيلاً كامل في نفس الظروف..

## ١٨

عاد صابر إلى البيت بعد صلاة الجمعة، رأى أباه مع بعض رجال الشارع يتبادلون الأحاديث، دنا منهم، أمسك بذراعه، جذب عم حفني

ذراعه آمراً :

- اذهب أنت ، دعنى أفك عن نفسى . .

تركه ، صعد الدرجات ، دفع الباب ، رأى أمه تقلب الأرز مع الخلطة ، حولها ماعون به ورق الكرنب ، ورق العنب ، وباذنجان أبيض ، فتحية تساعدها ، افتقد رومية فسأل عنها ، ردت أمه :

- فوق السطح تنشر الغسيل . .

قال متبرمًا :

- غسيل ومحشى فى يوم واحد . .

- كلها ساعة ونخلص . .

دخل إلى حجرة نومه ، خلع حذاءه ، تمدد فوق السرير بملابسه ، مستلقيًا على ظهره يحدق فى السقف . .

النوم يتسلل فى هدوء ، سمع كالحلم صوت أبيه :

- وبعدين يا أم صابر ، حافظى على الأرز لا تحصل فيه أزمة . .

قالت مشيحة بيد نفضت ما علق بها فى الماعون :

- يا خويا ، إحيينى اليوم و . . .

ثم أردفت بعد لحظة :

- . . . . .

ودهمه النعاس ، ارتفع صوت شخيره ، جذب عم حفنى ضلفة الباب ، ثم اتجه إلى حجرة الضيوف ، رأى ابنه الأصغر نائمًا على إحدى الكنبتين ، لكزه بعصاه صائحًا :

- قم . . فز ، ليلك ونهارك نوم ، وآخرتها . .

قام علاء ، رمق أباه بنظرة غضب وقال :

- أنت لا يعجبك العجب . .

تلقى ضربة عصا على ظهره ، جرى نحو الصالة يبرطم :

- لو خرجنا تقول صياعة، وإن..

خرج إليه عم حفنى مهدداً بالعصا:

- والله أكسرك، شوف لك شغلة يا فاشل..

قالت أم صابر لابنها علاء:

- نم على سريرى، ابعد عن أبيك الساعة..

دخل علاء حجرة نوم أمه، بعد أن أغلق بابها عليه، جلس عم حفنى على حافة الكنبة ينظر إلى زوجته وابنته فتحية، يدق بعصاته فوق البلاط دقات رتيبة..

***

اندفع داخلاً من باب الشقة الموارب، صبى فى مسحة طفولية قال فى لهوجة وفزع:

- أبيه صابر موجود!!

- مالك يا ولد!! هدئ نفسك..

قالتها أم صابر وهى ترى صدر الولد يعلو ويهبط ، قال الولد:

- نوال ماتت.. نوال ماتت..

بحركة غريزية ودون وعى لطمت خديها:

- يا نهار أسود..

صاحت فتحية:

- أنت تكذب..

ونهضت لطرده:

- امش..

قال الصبى مؤكداً:

- والله العظيم ماتت..

خرج الصبى مندفعًا كما جاء، ترقرقت الدموع من عينى أم صابر،

فتحية، عم حفنى يجفف دموعه بمنديله المحلاوى ذى المربعات، يتمخط ويمسح ما يخرج من أنفه، خرج صابر من الحجرة، استند إلى بابها بظهره، وجهه يصفر ويبيض، عيناه تبربشان، قالت فتحية:

– نوال...

قاطعها برعشة فى صوته:

– سمعت..

قال أبوه:

– يمكن إشاعة طلَّعها حاقد، إحنا فى زمن الإشاعات.. اذهب يا ابنى وتأكد..

تهطل دموعه بغزارة، تنحدر من عينيه، جانبى أرنبة أنفة، تتسلل فى فمه، تفيض، تسقط على قميصه، ينقل خطواته فى تثاقل، يدخل الشرفة، يواجهه صوت علىّ فى الشرفة المواجهة له:

– البقية فى حياتك يا صابر.. زهرة خطفها الموت.. الله يرحمها..

رأى أفواج الشباب تجتاز الشارع، يطيل أفرادها النظر إليه، انسحب منسحقًا إلى الداخل، ارتمى على بطنه فوق الكنبة، دس وجهه فى حشيتها، ارتفع صوت نشيجه وسرعان ما تحول إلى زُغُطّة، هرولت أمه نافضة ما فى يدها ومسحت ما علق منها فى ثيابها، دنت وصرخت:

– الحقنى يا علاء.. الحقنى يا علاء..

جاء علاء مسرعًا، ساعدها فى رفع أخيه وإلقائه على ظهره، أمرته أن يرفع رأسه، جلست على طرف الكنبة وأخذت رأس صابر على صدرها..

بدأ صوت الزغطة يضعف، فتحية تنثر على وجهه من زجاجة الكولونيا، علاء يربت على صدره، ثم يمسك يديه ويدلكها، يبدأ الهمهمة بكلمات مبهمة، تدفع أم صابر فتحية بيدها:

- هاتى بصلة واكسريها..

تشممه فتحية البصلة، يهز رأسه مبعداً فتحتى أنفه، يتنبه، يحدق، يعتدل، ينخرط ثانية فى بكاء مرير..

***

الشباب جماعات، جماعات، عند بداية البلوك، عند نهايته، عند أطراف الحديقة بين البلوكين، كلهم يعقدون أذرعهم فوق صدورهم، عيونهم المتفرقة تتلاقى وتتباعد، تتجمع خيوط النظرات عند نافذة نوال، أصوات نسوة الجيران خفتت، وقف جمع من الرجال أمام باب البلوك، تكلموا، تبادلوا الرأى، تفرقوا كل إلى وجهة معينة، أحدهم لاستخراج تصريح الدفن من الصحة، أحدهم لإبلاغ الحانوتى، ثالث لشراء الكفن، رابع للاتفاق مع محل الفراشة لإقامة سرادق العزاء.

اختلط شباب البلدة القديمة مع شباب المساكن لأول مرة فى مودة وألفة، بعد المعركة حامية الوطيس، والتى بدت كأنها حرب شرسة بين أعداء ألداء.

لمح ياسين من نافذته أبا سريع يقترب، استدار بوجهه متصنعًا التحدث مع أخته الصغرى عاجله أبو سريع بقوله:

- صحيح نوال ماتت يا ياسين؟؟

أدار ياسين وجهه متغضنا مضطربا، نظر إلى أبى سريع، تابع شفتيه وهو يستطرد:

- انس الماضى، كانت حمأة شباب، المصيبة مصيبتنا كلنا، البنت خسارة فى الموت..

- سامحنى.. أنا عارف قلبك أبيض..

وتناول وجه ياسين بين راحتيه، قبل وجنتيه وجبهته وشعره.. دمعت عينا ياسين،دعا أبا سريع:

- لف .. ادخل يا أبو سريع ..

استوى أبو سريع جالساً بجوار ياسين خلف النافذة، قال ياسين معاتباً:

- أنا كان همى تحجيمك ومنعك من العراك.. تضربنى..

- قلت لك سامحنى، كانت هوجه.. كله يضرب فى كله.. وياروح ما بعدك روح..

رفع ياسين ساقه، شلح رجل بنطلون البيجاما وأشار إلى أثر جرح قائلاً:

- أثر كرباجك يا مفترى..

تناول أبو سريع بأصبعيه السبابة والخنصر قبلة من شفتيه، وضعهما على أثر الجرح، مبتسماً قال:

- بالشفاء إن شاء الله.. اعتبرها ذكرى لأيام الشقاوة فى المستقبل.

ضحك ياسين ضحكته المعهودة وقال:

- الله يجازى شيطانك..

وتصافحا، تعانقا..

قبل بضعة أشهر خلت، تعرض أحمد عيد ابن المعلم عيد الجزار لبنت من بنات المساكن عاكسها، ضايقها، تبعها حتى مدخل البلوك، صرخت البنت، نزل أخوها، انهال بالركل والبونيات على أحمد، لم يستطع أحمد رده أو حماية نفسه، جرى مجتازاً الشارع إلى أطراف البلدة، خرج لإغاثته أصحاب المحلات وتحجيم المتابع له، المهاجم، وقف عزت ينظر إليهم مجتمعين حول أحمد يتهددونه.. تراجع بظهره منسحباً، استدار على عقبيه وهرول إلى البلوك، عاد سريعاً وفى يده اليمنى شومة طويلة وغليظة، يتبعه عدد من أهل المساكن تجمعوا على صراخ البنت، أحضر كل منهم ما استطاع العثور عليه فى لهوجة، كلٌ يحمل شيئاً للعراك. قضيب من الحديد، شومة، حزام جلدى سميك، لوح خشبى من ملة سرير، مطواة، سكين، غطاء حلة، تعالى صراخ

النسوة اللاتى هرعن خلف أولادهن وأزواجهن، وصل الصراخ أسماع شباب ورجال البلدة، صوت صبى يهرول فى الشارع الدائرى:

- المساكن هاجمة علينا..

خرج شباب البلدة ورجالها بأسلحتهم، فؤوس، أسياخ حديد المحمى والكفة التى كانت النسوة تستخدمها قديمًا فى تسوية الخبز فى الأفران بالدور، شوم، بلط، خناجر، يتقدمهم أبو سريع بكرباجه يلوح به فى الهواء فيند عنه صوت صفير..

دارت المعركة، كرّ وفرّ، يسقط تحت الأقدام من يسقط، يجرح من يتلقى ضربة مباغتة، تداخل المتعاركون، ارتفع إلى السماء الهادئة الوديعة صوت الصراخ والصوات، والاستغاثة والجعير، الدفع والتحذير، معركة خاطفة استغرقت حوالى ربع ساعة، وتراجع كل جانب إلى ناحيته، يحملون جرحاهم، تساءل كل جانب، عن قتلى، عمق الجروح، وبدا الاستعداد والتأهب لجولة أخرى.

أسرع الحاج حسن برهوم وبصحبته عدد من رجال البلدة، تخطوا جانب الشارع الأيمن إلى الرصيف الأوسط الفاصل بين جهتى الشارع، توجه إلى أبى سريع صارخًا:

- يا أبو سريع، ارم كرباجك على الأرض..

ثم للمجموع:

- كل واحد فى يديه حاجة يرميها..

تعالت همهمات الاحتجاج، مختلطة بهمهمات الاستنفار، رمى أبو سريع كرباجه، تبعه بقية المتحفزين، استدار الأستاذ حسنى، تقدم منه بعض رجال المساكن، بعد أن تركوا أسلحتهم المختلفة، استدار إليهم الحاج حسن برهوم بعدما تأكد من نزع أسلحة أهله وشباب بلدته، قال فى أمر:

- بعد صلاة العشاء نلتقى فى الجامع لنصفى الخلاف..

قال أحدهم:

- أمرك يا حاج..

بسط الحاج كفيه مع امتداد ذراعيه وهو يعبر الشارع كأنه يهش ويدفع أمامه بعض الطيور لتدخل أعشاشها، انسحبت المجاميع تمشى أمامه، قال وهو يمشى خلفهم:

- من تسبب فى هذه المعركة؟

أتاه صوت لم يتبين صاحبه:

- أحمد ابن المعلم عيد الجزار..

ناداه، أمره باللحاق به إلى المدرسة، مقر اللجنة..

***

قال ياسين وهو يقدم له الشاى:

- لولا الحاج حسن، كان ضاع فيها رقاب..

قال أبو سريع:

- الحاج حسن كبير بلدنا، لا أقدر على رفع عينى فى وجوده..

ثم أردف مبتسماً:

- ما محبة إلا بعد عداوة..

تعالى صوات بعض النسوة، قام ياسين وأطل من نافذة المطبخ التى تطل على الحديقة خلف البلوك، عاد قائلاً لأبى سريع:

- الظاهر الخشبة نازلة على السلم..

قاما، خرجا، لفّا حول البلوك إلى خلفيته، شباب البلوك يحملون نعش نوال، عبروا الشارع، قال أحد الرجال:

- نصلى عليها فى سيدى عباس..

قال آخر:

- يمّن يا رجل.. يميننا الجامع الكبير..

دخلوا شارع الكردى المفضى إلى الشارع الدائرى، تكاثر المشيعون، أغلقت كل الدكاكين والمحلات أبوابها، وتبع أصحابها الجنازة، تجمع يلحق، مجموعة تنضم، يمتد طابور المشيعين مئات الأمتار، النسوة أمام أبواب المنازل، وعلى نواصى الدروب تبكى، ترفع الطرح السوداء تمسح بها الدموع، الرجال مطأطئى الرءوس يبسملون فى همس، ثم يجهرون:

- لا إله إلا الله، محمد رسول الله..

لم يقل أحد مع رفع عقيرته «أنتم السابقون ونحن اللاحقون»، لا أحد تخلف عن ركب التشييع، عند المسجد الكبير توقفت الجنازة، توقف المشيعون، قطع الزحام الطريق، لا مكان ليمر فرد ما ولا بجانب من جانبيه، دخل المسجد عدد يقل عن ربع المشيعين، امتلأت بهم ساحته، عربة الدفن لم تستطع اختراق الحشد، طلب من سائقها أن يلف مع الشارع الدائرى ويأتى من الجهة الأخرى..

قال سمير:

- سبحان الله، فى جنازة أبى كنت وتسعة من أصدقائى كل الجنازة.. نتبادل حمل نعش أبى حتى تعبنا وكدنا نستجدى من يساعدوننا.

قال شاب يقطن بيتًا يطل على الشارع بين البلدة والمساكن:

- ما من أحد لم يعرف نوال، أو لم يسمع عنها، أو لم يحدثه أحد عن رقتها، جمالها الأخاذ، بسمتها الساحرة، عينيها المتألقتين.. اليوم بالذات تغزو سيرتها كل البيوت..

خرج النعش بعد انتهاء صلاة الجنازة، أودع العربة، انطلقت به والأيدى تلوح مودعة:

- مع السلامة، مع السلامة..

بوغت صابر وتجمدت الدماء فى عروقه، وبعض من يعرفونه يتخاطفون يده معزين:

- البقية فى حياتك..
- ربنا يعوض عليك بأحسن منها..
- نصيبك يا أستاذ، من يوم ما ظهرت فى الحتة باين عليها بنت موت.
- ربنا اختارها لبراءتها..
كأنه أحد أفراد أسرتها يردد فى آلية وشرود:
- حياتك الباقية..
جذبه حسن فخرى من ذراعه، وتأبط صلاح إمام ذراعه الآخر يسوقانه إلى البيت عيناه غائمتان من تجمد الدموع..

***

أمام الزحام الشديد، وتكالب الأفراد والجماعات على سرادق العزاء، اضطر المقرئ إلى قراءة الربع الواحد على عدة مراحل، يقرأ وعيناه على مدخل السرادق، بمجرد أن يلحظ شغل آخر مقعد يختم قراءته «صدق الله العظيم» لحظات يخرج الجالسون، ويدخل الواقفون ثم يكمل دون الاستفتاح «بسم الله الرحمن الرحيم»..
سأل الحاج حسن برهوم أحد مرافقيه بعدما قدّما واجب العزاء:
- أهى سبب المعركة؟
رد المرافق:
- ليست هى.. نوال صاحبت كل الشباب، ولم تتسبب صداقتها فى أى عراك بين الشباب أنفسهم..
وقال آخر:
- كان لها أسلوب غريب، تقول للشاب «لنكن أصدقاء أفضل»
تغيرت لهجة الحاج حسن برهوم بعدها وقال:
- الله يرحمها..
وتغيرت أفكاره بعد جنازتها، إذ كان دائما يردد «بناء هذه المساكن

جاء إلينا بالبلاء، الشباب فلت عياره، والبنات يقلدن بنات المساكن، وربنا يستر»..

اقترب رجل وهمس فى أذن الحاج حسن:

- يقول البعض أنها انتحرت..

- لا تردد ما يقال.. اذهب لحال سبيلك..

## ١٩

وجدت سماح نفسها فى بحر من النعم، جنة ما تراءت لها فى حلم نوم أبدا، تبعد صورتها القديمة كلما تخايلت أمام عينيها، أو داعبت ذاكرتها، تلوذ بصحيفة تقرؤها، تفر إلى السماء تتابع الطائرات محلقة، واحدة منها ركبها كامل وذهبت به بعيداً.. ترى فى وجود كارم إلى جانبها خطوات كبيرة قطعتها للتقرب إلى حبيب القلب والروح، فارس الأحلام والخيّال الراكب حصانًا أبيض تنتظره على أحر من الجمر.. تسأل كارم عنه دون حرج، تنتظر على نار متوهجة أثر تصرفها ليلة الأمس.

لمحت فوق مكتب كارم، مظروفًا ألصق على وجهه طابع بريد، وهو منهمك فى كتابة رسالة، عادت إلى حجرة مكتبها، جلست مرتكزة بكوعيها على سطح المكتب، وجهها بين راحتيها، تفكر لحظة، تبدو رأسها خاوية مشتتة ومضطربة للحظات، تبرق فى رأسها فكرة، تخبو فى نفس لحظة الميلاد..

انتبهت على صوت أحد العمال يقتحم عليها المكتب:

- البنت سعاد أغمى عليها، يبدو أنها حامل..

هبت سماح واقفة، أسرعت إلى مكتب كارم:

- الحق يا كارم، اتصل بالإسعاف..

نهض كارم، قال وهو يسرع خارجًا:

- أطمئن على حالتها وإذا احتاجت الإسعاف نطلبها..

فرصتها سانحة، دبرها القادر الحكيم، حمدت ربها، اختطفت ورقة صغيرة من بلوك نوت فوق المكتب، كتبت بيد مرتعشة عنوان كامل، العرق يتفصد من جبينها، عادت إلى مكتبها والورقة مطوية فى قبضة يدها، عاد كارم، طمأنها:

- زميلاتها فوَّقنها.. حالتها بخير..

- الحمد الله..

عاد إلى مكتبه، دست الورقة فى صدرها أحكمت ضبط «السوتيان» بضغطه فوق ثديها، تتعجل الساعة الباقية على انتهاء العمل بالمصنع لتطير إلى البيت، وتخلو مع كنزها الثمين، تنظر إلى السماء من خلال النافذة، تتطلع إلى النجوم تدلف إلى داخلها «ربنا يحبنى، يهيئ لى الفرص، يعرف قصة حبنا، يزيل ما يحول بيننا»، تزغرد الفرحة فى صدرها تنظر من خلال قبة الفستان إلى عبها، تطمئن لوجود الورقة، تنظر إلى الساعة المعلقة فوق الباب، تنسى الأقرب بمعصمها، تهتف «أشهد أن لا إله إلا الله»، وزينب تنبئ خطوات حذائها عن قدومها، قامت، علقت حقيبتها فى ذراعها عند ثنية الكوع، قابلت زينب أمام الباب، رفعت سير الحقيبة إلى كتفها، سارتا معًا إلى خارج المصنع، دلفتا إلى داخل السيارة، سأل عم عبده:

- البيت إن شاء الله..

قالت فرحة:

- طبعًا..

***

- جهزى لنا الغداء..

قالتها بمجرد دخولهما البيت، اتجهت إلى المكتب، أخرجت الورقة مبللة بالعرق، فردتها، نفخت فيها، تركتها فوق المكتب لتجف، خرجت تدندن بأغنيتها الأثيرة فى نفسها «حبيبى الغالى، من بعد الأشواق أهديك كل سلامى، نور عينى، روح قلبى...»

جلست تلوك اللقيمات فى بطء تقطع أسنانها اللقمة إلى فتات، تلوكها بفم يبتسم، يبين الفتات بين أسنانها، تهيم، تسقط داخلها «أقول له أنا أحبك، أنا فى انتظارك، أنا مت ومت وعدت إلى الحياة من أجلك، أقول له إننى تغيرت، تبدلت، أصبحت جديرة بك وبقلبك، أقول له تعال.. تعال عندى ما يكفى حياتنا إلى الأبد وأبد الأبد، أقول له سرقت عنوانك لأصل إليك.. أقول له سامحنى، لم أسرق فى حياتى قط، أقول له اقطع سفرتك وعد إلىّ حالاً، أقول..»

- مالك يا سماح..

تضرب زينب حافة طبقها بالملعقة:

- سماح.. ردى على..

تنتبه، تنظر إلى اللقمة فى يدها، إلى طبقها، تتلعثم:

- نعم..

- طبقك كما هو، لم ينقص غموس لقمة واحدة..

- مشغولة على أمى..

- بسيطة، نزورها، وتطمئنى عليها..

قالت بسرعة:

- لأ.. لأ.. عندى حاجة مهمة لازم أعملها..

- براحتك..

جلست مضطجعة على الأريكة فى الشرفة، مغمضة عينيها،

«غريب، أمرى غريب، كنت أتنشق على عنوانه، الآن حصلت عليه، لا أجد ما أقوله، ما أكتبه، هل أخشى إغضابه؟» تنتقل حرارة يده إلى يدها، أصابعه تتخلل أصابعها «خليك هنا، رب هنا رب هناك،» «ربنا قال: اسع يا عبد وأنا أسعى معاك» «وأنا يا كامل..» «مش عارف ح ارجع إمتى؟» «وحبنا» «حبنا اتولد لكن للأسف ما نملكش رعايته، حبنا عايز شمس وميَّه وهوا، عايز بيت وفلوس وعفش ومصاريف، ح نجيب منين.. نعيش..».

– الشاى يا سماح..

اعتدلت، رفعت خصلة شعر تهدلت على عينيها..

– عندى إحساس إنك غير طبيعية..

– إحساسك صح، افتكرت المدرسة، شغل الإبرة، عمل المفارش، الست.. الست سلوى عزت الله يرحمها، علمتنى القراءة والكتابة، علمتنى أعمل مفارش وأزينها بالورد، كانت ممتازة، لا أحد يمكنه أن يزاول نشاطها..

برقت فى ذهنها أفكار طرحتها على زينب:

– يا ريت أقدر أعمل مصنع فى الحتّة، يلم بناتها، ويساعد فى تدبير حياتهم..

قالت زينب:

– يا أختى، مصنع واحد مسبب لك التعب والهم، احمدى ربنا..

– حامداه وشاكراه.. واجب نفيد الحى، واجب نساعد الناس..

– أنت حرة..

تناولت رشفات الشاى، يغزوها التفكير، يرسم فى مخيلتها الأفكار واقعًا ملموسًا، ترى الأكف تصفق لها فى حفل الافتتاح، ترى الأوجه تصافح وجه السماء تدعو لها، ترى كامل.. كامل..

كصبية صغيرة، قفزت من مقعدها، أسرعت إلى غرفة المكتب، عبثت بأحد الأدراج، مدت يدها، وضعتها أمام عينيها، ما أجملها، صورتها، تبعث بها إليه.. تقول ما تقول، وإن لم تقل شيئًا، تقول الصورة كل ما فى نفسها..

بعثت الخطاب وبه الصورة وهاهى تنتظر متلهفة، مترهبة فى محراب الانتظار، متبتلة متحفزة، متزعزعة، مثقلة الرأس، تود لو تنام.. تنام يتصل الليل بالنهار، لا تفيق منه حتى يصلها رد الخطاب..

## ٢٠

عشرات السنين، قد تكون مئات، لا أحد يذكر بالضبط أنه سمع عنه من أبيه أو جدّه، كل ما تجمّع عنه من روايات، وأحاديث، أن المقام يحمل اسم الشيخ علوان، القبة صغيرة والمساحة لا تزيد عن أربعة أمتار طولا ومثلها عرضًا، باب المقام مغلق، طاقة صغيرة تطل إلى الداخل فلا يرى إلا ظلام فى ظلام، يقول بعض الكبار أنهم تآنسوا بوجوده، اتخذ ما حوله من أرض فضاء كمصلى، تمر أمامه الترعة الشرقية، يستخدم ماؤها فى الوضوء، ظل على هذه الحال بعد تمهيد الشارع، رصفه، رص أعمدة الإنارة، استغلت الأرض الفضاء حوله كسوق للخضر والفاكهة، يؤمه أهل البلدة، والوافدون الجدد بالمساكن الشعبية، ثم ظهر الكشك الصغير لبيع الصحف..

فوجئ الحاج حسن برهوم - ذات مساء - بعد صلاة العشاء بالحاج على الليثى ينتحى به جانبًا، يقول:

- الشيخ علوان لا نعرف له أصلاً ولا فصلاً.. أرى أن نقيم مسجداً مكانه.. ما رأيك؟

- والله فكرة يا حاج على..
- أنا مستعد لتحمل كافة تكاليفه..
- نظر الحاج حسن برهوم بدهشة داراها بسرعة:
- وحدك، هذا كثير، يمكن أن نعلن ذلك فى خطبة الجمعة، ونفتح باب التبرعات..
- عندما نعجز يمكننا مطالبة الناس بالتبرع.
تنحنح الحاج على الليثى ثم أردف:
- بودى أعمل حاجة لوجه الله.. الخير والحمد لله كثير، والكفن بدون جيوب..
- وبناتك يا حاج على..
- عندهن ما يكفى وزيادة..
- لا أحد يمنعك عن فعل الخير لله وللناس.. عزمت فتوكل على الله.
قال الحاج حسن برهوم بعد فترة صمت، وهما يقطعان الطريق على مهل:
- هل تظن المساحة تكفى لتكون مسجداً؟
- أتمنى ألا تقل عن قيراط..
فكر الحاج حسن أن يمرا ويقدرا مساحتها على الطبيعة، أعلن عن فكرته وافقه الحاج على الليثى فوراً..
كان عليهما أن يميلا فى أى من الشوارع الجانبية المفضية إلى الشارع الجديد، يمشيان على طواره حتى مقام الشيخ علوان، مالا يميناً فى شارع سالم، مشيا يتطلعان إلى آخر الشارع، حبال اللمبات الملونة المضيئة تصل ما بين جانبى الشارع، عند الناصية سرادق صغير حوله جمهرة من الناس، كلما اقتربا تبينا شيئًا جديداً، الأرض مرشوشة بنشارة الخشب، باقات زهور على جانبى السرادق، داخل السرادق رصت كراسى، تقدم شاب فى مقتبل العمر منهما وقال:

- أهلاً وسهلاً، تفضلا ..

سأل الحاج حسن:

- ما المناسبة؟

- افتتاح محل كوافير ..

ضحك الحاج حسن وقال:

- أعرف محل بقالة، جزارة، كهرباء، مطعم، مانيفاتورة، مكتبة، لكن كوافير ..

قال الشاب:

- كوافير يعنى حلاق للبنات والسيدات .. أنا صاحبه، محسوبك عرفة المشد ..

زمَّ الحاج حسن برهوم شفتيه، جذب الحاج على الليثى من ذراعه:

- هيا يا حاج، نحتاج محل حلاق للحمير .. آه يا بلد ..

واصلا سيرهما حتى مقام الشيخ علوان، خطا الحاج حسن بعد آخر بيت، يعد خطواته فى صمت، وصل إلى الناصية، مال مستكملاً خطواته، وصل إلى البيت السابق للمقام، قال وهو يعود إلى الناصية:

- أقل من قيراط يا حاج على ..

- لا يهم .. إقامة المسجد أفضل من استيلاء الباعة عليها ..

- على خير، إن شاء الله ..

رجعا إلى الجرن من شارع الشيخ علوان، تصافحا، انصرف كل منهما إلى بيته ..

خلع الحاج حسن طاقيته، ألقى بها على مخدة السرير، خلع جلبابه وعلقه على مسمار مدقوق فى الحائط، جلس على حافة السرير يهز رجليه .. جاءت زوجته:

- تتعشى يا حاج ..

- نتعشى يا أم حمدى..

تطلعت إليه فى دهشة:

- مالك يا حاج.. أول مرة تنادينى بأم حمدى، أنت نسيت الدكتور سيد.

- يستحسن أنساه.. ابنك أعجبته الغربة، نسينا بالمرة..

- إياك تغضب عليه يا حاج، وحياة النبى..

- صلى الله عليه وسلم، فضيها سيرة وحضرى العشاء..

اجتمع حول الطبلية، إلى جانب الحاج حسن وزوجته ابنهما حمدى، وأحفادهما سعد وثريا أولاد سيدة، وسلطان ومسعد أولاد بهية، داعبهما الحاج حسن:

- حضرتم يا أولاد الافتتاح..

قال حمدى:

- محل الكوافير..

- حلاق البنات..

نظرت أم سيد إلى الحاج وهو يضحك..

- من قال إن البنات لها حلاق، وأى بنت ترضى تقص شعرها..

قال حمدى مبتسما:

- الموضة يا أمى.. بنت بشعر طويل، بنت بشعر قصير، بنت بقصة، و...

قاطعته أمه:

- الشعر الطويل تاج البنت..

قال الحاج حسن وهو يوزع قطع اللحم على الأولاد:

- ربنا يستر..

ثم مهدداً:

- إياك أسمع إن واحدة من بناتك دخلت المحل ده..

- يا عيب الشوم يا حاج..

قال حمدى:

- الزمن تغير يا حاج، يهتم الكوافير بتزيين العروسة، وأصحابها، والبنات فى المناسبات كالأعياد..

سأل الحاج حسن حمدى ابنه:

- من المساكن عرفة المشد..؟

- يسكن فى أرض أبو عمة..

جلس الحاج حسن على حافة السرير، حمد الله، حملت أم سيد الأطباق الفارغة، مشنة الخبز، الطبلية إلى خارج الحجرة، قفز الأطفال إلى السرير، يداعبون جدهم ويداعبهم، يضحك ويضحكون..

دخل حسن الصغير، قال بصوت عال:

- أبويا اشترى تليفزيون..

ضرب الحاج حسن كفيه متعجبًا، قال لحمدى:

- الظاهر عمك سيد اتجنن.. أنا واثق إن مرته زنّت فى ودانه..

- جايز، أخوها صلاح إمام اشتراه من مدة..

قفز أولاد سيدة، تبعهم أولاد بهية، قالت أم سيد وهى تتابعهم:

- مروّحين يا ولاد..

رد أكبرهم سنّا:

- لا.. رايحين عند جدنا سيد.. نتفرج على التليفزيون..

استأذن حمدى من أبيه، تطلع إليه الحاج حسن مبتسماً:

- أكيد، ذاهب لعمك..

- أمرّ على الأستاذ صلاح إمام ثم أذهب لعمى..

- بالسلامة يا سيدى..

اضطجع الحاج حسن على جانبه الأيمن، يرتكز كوعه على الوسادة،

وخده الأيمن يميل ناحية كفه المنبسطة، بينما تستند مؤخرة رأسه إلى شباك السرير..

- الشاى يا أم سيد..

- حالا يا حاج..

يعاتب فى صمته سيد، يلومه على تصرفه الأحمق، تليفزيون، هو صحيح تسلية للولاد، لكن مضيعة للوقت، بكره يندم.. بكره يقول ياريت ما اشتريته..

دخلت أم سيد بالشاى، اعتدل وتناوله منها، نظر إليها مليا، سألها:

- نفسك تقولى حاجة..

- بعد إذنك، بعد إذنك وإذا وافقت، أوصل لغاية بيت سيد أبارك لهم.

- بالسلامة ياستى، حصلى ابنك حمدى..



## ٢١

- ميدان نوال .. آخر الخط..

تنبه صابر من شروده، استعاد ما سمعه لتوه من فم الكمسارى «ميدان نوال»، ظهر ما حاول - لبضعة أشهر - التعتيم عليه، نسيانه، تجاهله، دفنه، تأججت فى جوانحه مشاعر الحزن، الألم، الضياع، أوشك على البكاء..

غادر الأتوبيس، تتدلى من يده اليسرى حقيبة ملابسه، أحاط الميدان بنظرة متأنية متأملة، صافح الاسم عينيه، مكتوبا باللون الأخضر، فوق هامة كشك ناظر محطة الأتوبيس، فوق الحوائط «ميدان نوال» مسيرة محطة أتوبيس ليصل لبيته، مشى يتطلع، ينظر، يحدق، بقالة نوال، مانيفاتورة نوال، مخبز نوال، أحذية نوال، ملابس نوال، روائح نوال،

عطارة نوال، ساعاتى نوال، اقترب أكثر من البيت، يضغط مشاعره، يمنع عينيه عن البكاء، ينظر أمامه لا يمنة ولا يسرة، لم يستطع ، وقف، تطلع، نافذة نوال..

ظل واقفا، شريط سينمائى تتراءى مشاهده أمام عينيه، فى ذهنه، تطل من النافذة، تمشط شعرها، تلوح بيدها، تشهر فى الهواء أصابع يد واحدة تعنى «خمس دقائق»، يداها الاثنتان تعنى «عشر دقائق»، يتمشى فى اتجاه الميدان، تلحق به، ينظر إلى وجهها الطفولى تنبع من بشاشته براءة، من تورده دفء وحرارة، تقودهما الأقدام حيث تشاء، يجدا نفسيهما أمام دار السينما يدخلان، قرب الكورنيش يتمشيان تداعب النسمات خصلات شعرها، تهفهف، تلطمه على وجهه، تعتذر، تلملم شعرها، تلفه فى دائرة، تشبك الدائرة أعلى رأسها، تضحك، تبتسم، يأكلان الذرة، يتسليان بتناول الترمس، يحبسان بزجاجتى كوكاكولا، تحكى، يحكى، تقدم له كرافتة هدية، يقدم لها باقة مناديل، يقطف وردة من الحديقة يغرسها فى شعرها، يحيط ذراعه بوسطها، فوق كتفيها، يتأبط ذراعها ذراعه..

ظل شارداً، تغار هند من همساتهما، ضحكاتهما، يدعو كامل لمصاحبتها، يمشون اثنين اثنين، تزداد هند غيظًا، كامل لا يتكلم، لا يهمس، لا يضحك، ولا يبتسم، رفض حسن فخرى، قال «لعب عيال»، رفض صلاح إمام «عندى ليلاى»، أنب كامل، سخر منه، «قل أى شىء، افعل أى شىء، لا تجعلها تغضب، تحس بأنها غير محبوبة»، تخلصت نوال من هند، لم تعد تصحبها معها..

دق الأرض بحذائه الميرى الثقيل، تابع سيره، محل جديد عند الناصية «كوافير نوال» حث الخطى، عند الناصية الثانية، بناء ظهرت معالمه، مسجد، سأل الحلاق، أخبره ، تمتم: «الحمد لله» ليس مسجد نوال.

تشكك من رآه، تردد في التقدم بسرعة ومصافحته، مال جسده للنحافة، تغير بياضه إلى سمرة لامعة، بدا شخصاً آخر، امتدت الأيدى لمصافحته، البعض يقبله، يحتضنه:

- الشارع مظلم لغيابك..

- ألف حمد الله على السلامة..

- أهلاً بالبطل، نأمل النصر على يديك، عودة سيناء المحتلة..

- هل حقا أعيد تسليح الجيش؟؟

تخلص بحسن تصرف، صعد الدرجات، ألقى حقيبته أرضًا، أحضان، قبلات، دموع، لوم، تأنيب، استدرار، استياء.. جلبة، ضوضاء، إشفاق، تكالب الجيران، تهانى وحمد الله على السلامة، قصص وحكايات، أخبار، تمنيات، أحلام..

تساءل عن أخبار الحى، الجيران، الأصدقاء، قدمت له رومية عدة خطابات من كامل، أرسل أخاه علاء لحسن فخرى، ويمر في طريقه على صلاح إمام، أطل من الشرفة في انتظار أوبته، لوحت له بُسبُس، وصل أذنيه صوتها الرخيم:

- حمد الله على السلامة..

- الله يسلمك..

رفع وليم يده بإشارة محيية، هز رأسه ردًا على إشارته، يجوب الشارع بعينيه طولاً وعرضًا، يرى في آخره الجرن، يرى أعمال حفر، رمل وزلط وحديد وأسمنت، يسأل:

- من يبنى في الجرن؟

يرد أبوه:

- تقيم الحكومة مدرسة جديدة..

- ما أخبار علاء؟

- وجد عملاً فى ورشة خراطة.. يأتى متأخراً.. اليوم إجازته..

يفض الخطابات، يقرأ كلمات كامل، «بعثت لك عدة رسائل، لم يصلنى رد، لن أكتب إلا بعد ردك، أنا هنا متضايق، لكن ما باليد حيلة، بركان الغضب فى صدرى لا يجد له متنفساً، هؤلاء الناس يلقون باللوم علينا، يتهموننا بالجبن والخذلان، يقولون أننا هزمناهم وضيعناهم، ينفثون أحقادهم فى كل المصريين، وصلتنى رسالة حب فرجت كربتى، سماح، أنت تعرفها، تلميذة الأخت سلوى عزت النجيبة، تغيرت أحوالها، عرفت أنها تملكت مصنعًا للملابس، وبيتًا، علمت أن كارم أخى يعمل عندها، طالبتنى أن أصفى حسابى وأعود، تنتظرنى فى لهفة، أخطط لأشاركها لا أكون عالة عليها، قد يدهشك أن تعرف أنى وهى متحابان، اعترف كل منا للآخر بعواطفه، أتذكر يوم استمتعنا بالجلوس فى الصندل، كنت معها عصر ذلك اليوم، ودعتها بلا أمل فى اللقاء، أعتقد أن سعادة المرء فى أن يكون محبوبًا لا محبًا، هى تحبنى، سماح المكافحة، تعلمت التفصيل والحياكة، أشغال الإبرة، والقراءة والكتابة، لا تنسى فضل سلوى عزت عليها، تقول فى رسالتها «لولا فضل الست سلوى عزت ما استطعت أن أكتب كلمة واحدة، يرحمها الله»، علمت بما حدث لك، لحبك، للمرحومة نوال، أدعو الله أن يرحمها، وأدعوه أن يهون عليك، من كان يصدق أنها أحبتك، وكان حبها لك ختام حياتها، علمت بزيارتها لك فى البيت، تشغل هذه الزيارة فكرى ليل نهار، هل كانت تشعر بقرب أجلها؟ هل زارتك لتودعك؟، هل كانت فى كامل وعيها وإرادتها؟، عاشت ملء الأفواه سيرتها، وأعتقد أن موتها سيظل حديث الناس طويلاً.. كيف حالك؟، أنا عشت وأعيش وسأعيش ما بقى لى فى الغربة مع رسائل الأصدقاء، حملتها معى، ابن خالتى راسلنى عندما كان فى اليمن، ابن خالى

راسلني عندما سافر إلى اليابان وموسكو، أولاد خالتي الكبرى استقر مقامهم في السويد تركوا الجامعة، خرجوا في الإجازة الصيفية ولم يعودوا، سمعت عن مظاهرات الطلاب، وعن ضرب مدرسة بحر البقر ومصنع أبي زعبل، والزيتية، يقال هنا أن مصر تستعد للحرب، يخشى أن يكون في الأفق هزيمة أخرى تطيح بما بقي من كيان، أحقًا هذا الاستعداد؟، صديقي، أريد أن أكتب وأظل أكتب، لكني أخشى أن أرهقك بالقراءة، وأنا أعرف بغضك لها.. هذه آخر رسائلي إليك وفي انتظار ردك..»

تصفح صابر بقية الرسائل بقراءة عابرة، عاد علاء وأخبره أن حسن فخري سيحضر بعد قليل، أما صلاح إمام فلم يعد للبيت بعد..

العمل في المطبخ على قدم وساق، أم صابر منهمكة في نزع ريش ذكر البط والحمام، رومية تعد الأرز بعد أن نظفته من الشوائب، فتحية تقشر البطاطس لإعداد صينية البطاطس، علاء مشغول بإعداد الشاي..

تلقاه بالأحضان والدموع، القبلات تنهمر وتختلط الشفاه بالدموع، تنهد صلاح إمام وقال:

– لم أشعر بفقدان أبي رحمة الله عليه كما شعرت بفقدانك..

– أنت سبب موافقتي على القيام بالإجازة..

– أحقًا، هل وصلك رسولي..

– وصل، وأجبرني على القيام بالإجازة..

– أبوك يا صابر، أبوك تعب أعصابي، كلما رآني أو يبعث في طلبي يقول «اسأل على أخيك» زره واطلب منه المجيء، أخشى أن أموت دون أن أراه..

نظر صلاح إلى عم حفني وقال:

– صح ما أقول؟!

هز عم حفنى رأسه علامة الموافقة .. ثم قال :

- أعرف أن أى مجند ينتظر الإجازة بفارغ الصبر ، وصاحبك لا يبالى.

اخترقت عينا صلاح إمام الصالة إلى المطبخ وصاح :

- هلت روائح المحمر والمشمر يا أم صابر ..

أقبلت أم صابر وهى تفرد كمى جلبابها ، حيت صلاح وقالت :

- سمعتك تنادينى ..

قال صلاح متضاحكًا :

- رائحة المحمر خرجت للشارع، لو أدركت لأحضرت مها وماهر معى.

رفع صابر صوته فى ابتهاج بعد أن طلب من أمه وهى تنصرف إعداد الشاى :

- نسيت أهنيك ، ألف مبروك ولى العهد ..

ضرب صلاح صابر بقبضة يده على كتفه :

- كان من الأول ..

- الحقيقة يا صلاح أنا فى ذهول مما رأيت ، ماذا حدث للناس؟؟

قال صلاح بسرعة :

- هفة بعيد عنك .. هوس ..

- أنا خمنت الموضوع اتنسى خلاص، وأنا نفسى تخيلت إنى نسيت ..

فوجئت بأنه حى .. يعلن عن نفسه ، من العبقرى صاحب الفكرة ؟

قال صلاح :

- يقال والله أعلم ، أن الناس فوجئوا فى الصباح باسمها مكتوبا بالبوية فى الميدان وعلى كشك الأتوبيس ، وعلى أرض الشارع ..

دفع حسن فخرى الباب الموارب هاتفًا :

- رجع الباب لأصله ..

تلقى صابر بين ذراعيه مقبلاً وجنتيه :

- واحشني، والله واحشني..

قال من فوق كتف صابر لعم حفني:

- مبسوط يا عم حفني، الباب رجع يتوارب من جديد..

قال عم حفني ضاحكاً:

- وانت الصادق، الكلب الحارس له مشي..الهيصة رجعت للبيت..

- يعني صابر مهم بدرجة كبيرة..

قال صلاح وهو يجذب حسن من يده ليجلسه بجواره:

- طبعا يا أخي.. صابر ولي العهد الأكبر..

دخلت أم صابر، صافحت حسن فخري، قالت لصابر:

- الأكل جاهز..

قال حسن فخري متضاحكًا:

- أكل يعني أكل.. تلاقيك زهقت من العدس والبصارة وال..

قال صابر:

- المشكلة في عدم الاهتمام به قبل طبخه.. الرز يقرقش تحت أسنانك، البصارة فولها بالواحدة، الفراخ ممكن تلاقي فيها ريش، اللحم فقط تأكله وأنت مطمئن..

أحضر علاء ترابيزة صغيرة وضعها بين الكنبتين، أخذ يرص فوقها الأطباق، قال عم حفني وهو يسحب كرسيًا إلى البلكونة:

- كل يا ابني مع أصحابك، رم عضمك وانت خسيت بشكل واضح.

قال صلاح:

- أمري لله، وأتحمل علقة مها..

قال صابر:

- يذهب علاء ويأتي بها..

قال صلاح:

- لأ، ذكى يا ولد، أنت تذهب إليها غصب عنك..

- قال صابر:

- فعلا.. نفسى أقبل..

وصمت حتى تذكر اسم ولى العهد، أردف قائلاً وهو يرى تحفز صلاح بقبضة يده:

- ماهر..

- قال صلاح وهو يفك قبضته:

- افتكرتك تُقبِّل مها..

واستغرقوا فى الضحك..

## ٢٢

بدأت الحرب مرة أخرى، يسمع الناس عبر المذياع، والتليفزيون أخباراً عن حرب الاستنزاف، الساتر الترابى، خط بارليف، مواقع الصواريخ، حائط الصواريخ، نشط الدفاع المدنى، وتأهبت المطافئ، بدأ الحاج حسن برهوم يتواجد يوميًا فى المدرسة، يتلقى بعض التعليمات، يدهن الناس زجاج منازلهم باللون الأزرق، تعليمات باللجوء إلى المخبأ عند وقوع غارة، مطالبة الشباب بالتبرع بالدم، توعية الجماهير بعدم التكالب على تخزين المواد التموينية، تلافى الأزمات، سلامة الجبهة الداخلية، يد تبنى ويد تحمل السلاح، لا صوت يعلو على صوت المعركة، ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة، لا صلح لا تفاوض، لا استسلام، الحرب، استرداد الكرامة والأرض..

يخلع الحاج حسن شال عمامته الأبيض، يضعه على كتفه، يخلع طاقيته، يمسح العرق، يتحسس مفتاح بوابة الخندق فى جيب

الصـديرى، تتجـول عيناه داخله، هل يسع كل الناس، مستحيل، ما فائدته إذن؟

فوجئ ذات صباح بصوت الأستاذ حسنى يناديه:

- اتفضل..

- تعيش يا حاج، ابعث بمفتاح الخندق.. رئيس الدفاع المدنى يطلبه.

- هل جد شيء..؟

- بعض الأسر المهاجرة ستقيم فيه..

ارتدى الحاج حسن جلبابه، وضع الطاقية فوق رأسه، لف شال العمامة، دس قدميه فى المداس، نزل السلم بعد ما أخرج مفتاح الخندق من جيب صديريته، مشى مع الأستاذ حسنى يتحدثان، يقول الأستاذ حسنى:

- لا أدرى كيف يقيم الناس تحت الأرض؟

- المشكلة في قضاء حاجاتهم.. لا يوجد دورات مياه، ولا مياه أصلاً.

- ربنا يستر يا حاج..

- لا يبين هذا الستر.. المشاكل تبدأ من جديد..

المشاكل، توقعها الحاج حسن لأنه عاصر مثلها، يوم أنذرت الحكومة أصحاب البيوت لإقامة المساكن الشعبية، قامت المشاكل بين أصحاب الأرض والمشترين، يتهم المشترون أصحاب الأرض بأنهم باعوها وهم يعرفون أنها فى تخطيط الحكومة لبناء المساكن، اتهامات ومشاجرات وتحرير المحاضر بالقسم، أمكن التوصل إلى حل وسط أمام مأمور القسم، تعهد الحكومة بتسليمهم شققاً فى المساكن، ودفع التعويضات لهم، وعلى أصحاب الأرض توفير أماكن لإقامة الأسر حتى يتم بناء المساكن.

دخل الأغراب إلى الدروب والأزقة، سكنوا الحجرات الخالية، وحظائر المواشى التى خلت بعد غزو المبانى للأراضى الزراعية، ضج الحاج حسن من المشاكل، عراك بسبب الأولاد، عراك بسبب تباين

العادات والتقاليد، مشاكل النساء، مشاكل الرجال، مشاكل الأولاد، استمر القلق عدة سنوات، بعض الأسر الغريبة رحلت إلى أماكن أخرى، بعضها سافرت إلى بلدانها التى نزحوا منها، أخلى القليل من الحجرات التى شغلت، وبدأ شيء من الهدوء يخيم على الحى..

قال الحاج حسن لمدير الدفاع المدنى:

- الخندق غير مجهز للإقامة الدائمة..

قال المدير:

- مؤقتًا يا حاج، مؤقتًا..

- قال الأستاذ حسنى:

- الاحتياجات الضرورية غير متوفرة.. لا يوجد شبابيك، لا دورات مياه.. المياه أمرها سهل من حنفية الحكومة، لكن أين يقضون حاجتهم؟

قال مدير الدفاع المدنى:

- سنقيم دورات مياه خارج الخندق، سنقيم بعض الفتحات فى سقف الخندق للتهوية، تذكروا أنهم أناس مثلكم، تركوا بيوتهم فى السويس بسبب الحرب، كلهم أسر محترمة، اضطروا للفرار من غارات العدو، أخلوا بيوتهم حرصًا على حياتهم، علينا أن نستوعبهم..

سأل الحاج حسن:

- متى يصلون؟

- غدا صباحًا على الأكثر..

أمر مدير الدفاع المدنى أحد عماله بفتح الخندق، بدأ بعض العمال فى تنظيفه وفتح فتحات للتهوية، عمال آخرون يوصلون أسلاك الكهرباء لإنارته، غيرهم يبنون كشكًا خشبيًا لإعداده كدورة مياه، انتهى عمال الكهرباء سريعًا، وجربوا الإضاءة، انفض جمع الأهالى الذين وقفوا يشهدون، تتناثر الأحاديث بينهم، ولم يبق إلا بعض

الصبية يلعبون فوق وحول الخندق..

جلس الحاج حسن برهوم عند مدخل درب العمدة، حوله الأستاذ حسنى، والحاج إبراهيم وسلامة مسئول الشباب، حل مكان كامل بعد سفره، تطلع الحاج حسن إلى السماء مفتقداً كامل دينامو النشاط منذ التقى به فى بيت صلاح إمام، تعرف إليه وتعرف على أسرته، وعندما حدثه عن جده قال الحاج حسن ضاحكاً:

- الله يرحمه، حفظت على يديه القرآن الكريم، والقراءة والكتابة، كان رجلا بحق، تعهد كل الصبيان، منهم من وصل الآن إلى مراكز كبيرة فى المناصب الحكومية..

قال صلاح إمام:

- كامل ليس غريبًا عن البلد، وقد يكتشف أن نصف أهلها أقارب له.

علق الحاج حسن قائلاً:

- فعلا، علاقات القربى والمصاهرة جعلت البلدة أسرة واحدة، لكن دخول الغرباء أفسد العلاقات، قطع أواصر القربى، فرق بين الأشقاء..

قال صلاح إمام مداعبًا:

- تقصد من يا حاج؟ نشأت علاقة مصاهرة بيننا وبينكم..

قال الحاج حسن:

- لا أقصد أرض الحديقة وسكانها، أقصد المساكن الشعبية، سكان أرض الفتوة، سكان أرض أبو عمة، عندما أمشى فى هذه المناطق أشعر بالغربة.

تمضى الأيام، يشعر الحاج حسن بأن زيارته لصلاح إمام لإشراكه فى العمل السياسى لم يكن عبثاً، حين طُلب منه تجنيد بعض الشباب لتدريبهم، وصقلهم للعمل السياسى، تربية كوادر منهم يتولون زمام المسئولية، استعرض كل شباب المنطقة، لم يجد أحداً منهم يصلح أن يكون قائدا يلتف حوله الشباب، استغرق الأمر وقتاً طويلاً، وعندما

عرض عليه أخوه اسم صلاح إمام، أدرك الحاج حسن أنه خير من يعتمد عليه، وقام على الفور بزيارته، ونجح فى إقناعه، سرعان ما تمكن صلاح إمام وكامل فى تدعيم النشاط وشغل المنطقة كلها بالعمل السياسى..

- فكر معى يا أستاذ حسنى، ماذا يجب علينا عمله للمهاجرين؟

- اقترح عمل اجتماع لكل الناس يا حاج..

- يدور هذا فى ذهنى، هل تتولى الدعوة؟

- يمكن أن يقوم بها حمدى وبعض شباب المنظمة..

استغرق الحاج حسن فى التفكير بعض الوقت، ثم قال:

- أفضل الاستعانة بميكروفون إسماعيل الكهربائى، يلف الحى معلنًا عن الاجتماع..

- فكرة طيبة يا حاج..

***

تهيأ حوش المدرسة لاستقبال الرجال القادمين للاجتماع، أعطى الحاج حسن مفتاح حجرة ناظر المدرسة لسلامة، طلب منه إخراج الميكروفون، استعان سلامة بعدد كبير من الشباب، قاموا بنقل التخت من الفصول ورصها فى حوش المدرسة، أخرجوا ترابيزة اجتماع المدرسين ورصوا خلفها عدداً من الكراسى، بدأ توافد الرجال والشباب، وبعض الشابات ممن شاركن من قبل فى النشاط النسائى، وعند السادسة بدأ الاجتماع.

بدأ الحاج حسن متردداً، فلأول مرة يقف خطيبًا وسط جمع غفير، لا يفتقد الجرأة أو المواجهة أو الحديث، لكنه يفتقد الوقوف أمام الميكروفون، اعتاد جلسة العائلة الواحدة داخل المندرة يسمع الناس والناس يسمعونه، إذا تكلم صمت الجميع، لكنه يلاحظ أن هناك ضوضاء، بعض الشباب حديثى السن يأخذون الأمر لعبة أو تسلية، بعض الصبية يجرون بين التخت.. صاح فى غضب:

- نحن فى اجتماع، كل أب يُجلس ابنه بجواره أو يُخرجه من المدرسة، وكل شاب يحترم نفسه أو ينصرف..

بعد قليل خيم الصمت فوق الرؤوس، تشجع الحاج حسن وقال:

- نحن اليوم فى موقف يتطلب منا التضحية، سيهل علينا ضيوف هم أهل لنا، تعرضوا لمعاناة الحرب، نحن هنا لم نشعر بالحرب، عشناها أخباراً فى الإذاعة وفى الصحافة، لكن لم نشعر بغاراتها، ولا قنابلها، ولا نيرانها، علينا أن نتخيل أنفسنا من أهل بورسعيد أو الإسماعيلية أو السويس.. نتخيل العدو أمامنا على الجانب الآخر، نتصور الغارات كل صباح وطول النهار والليل، إذا تخيلنا ذلك، نستطيع أن نقدر ظروف وحالة ضيوفنا، أقول ذلك لنعد أنفسنا لاستقبالهم بالود والترحيب، من فى بيته حجرة خالية يتقدم للأستاذ حسنى ويملى عليه عنوانه، من لديه أشياء يستغنى عنها، ملابس، أغطية، حصير، أوانى، حلل، مواقد جاز، أكواب، أى شىء مستغنى عنه يمكن الاستفادة به، أنا أضع أمامكم ما قد يحتاجه أهلنا القادمون، عندما قمنا بمشروع التوفير قلنا إنه نوع من التكافل الاجتماعى لبناء الوطن، الآن يجب أن نتكاتف جميعاً لنكفل للقادمين حياة لا أقول سعيدة، ولكن أقول فيها بعض الراحة والاطمئنان.. وبداية على كل رب أسرة أن يعد نفسه لإخراج بعض الطعام، أنا أقدر الظروف، كلنا نعانى، لكن معاناتنا لا تساوى نصف أو ربع ما عاناه المهاجرون القادمون، علينا أن نتحمل إطعامهم لمدة أسبوع على الأقل حتى تستقر أمور حياتهم.. يمكن ترتيب ذلك بمجرد أن نعرف عدد الأسر القادمة..

ترك الحاج حسن برهوم الميكروفون للأستاذ حسنى قائلاً:

- تفضل يا أستاذ حسنى قل كلمتك..

أمسك الأستاذ حسنى بالميكروفون، أحاط الجمع بعينيه وقال:

- نحن جميعًا أبناء بلد، أولاد عمومة، تربطنا شبكة علاقات منها علاقات قربى، علاقات مصاهرة، علاقات صداقة، إذا قام أحدنا بعمل مشرف الشرف لنا كلنا، إذا ضحى أحدنا نسبت التضحية لنا كلنا، إذا أساء أحدنا التصرف مستنا الإساءة كلنا، أقصد من كلامي أن نكون جميعا في موقف مشرف، نعمل معا كَيَد واحدة، وقلب واحد، بودى أن ينجح كل منا في أداء ما يكلف به، لا أريد أن أرى أحداً يتهرب، أو يتلكأ، أو يتحجج بالظروف، أو بعدم الاستطاعة.. لن يكلف أحد فوق طاقته، نحن نعرف قدرات كل أسرة، ولن نكلف أى أسرة أكثر مما تطيق.

انفض الاجتماع، تفرق المجتمعون فرادى وجماعات، لا حديث إلا عن الحرب، وعن الفارين من جحيمها، ويعبر كل واحد عن وجهة نظره فيما تحمله الأيام القادمة.. أهى حرب؟ أم بداية حرب؟، لا يعرف أغلبهم معنى الاستنزاف.

## ٢٣

انتقل الحاج حسن برهوم إلى مجلسه المعتاد، بجوار حديقة المدرسة. التف حوله عدد من الأهالى، يتبادلون الحديث، التفت إلى سرور صاحب محل الفراشة وقال:

- أعرف أن عندك حجرات خالية، أبلغت الأستاذ حسنى بها ؟

قال سرور:

- آسف يا حاج، أنت خير من يعرف، مازلنا نعانى من السكان الذين جاءوا عند الإزالة.. أنت تعرف، أسكناهم، طالبوا بعقود إيجار وافقنا، ثم جاء التخفيض، أصحبنا نحصل على عائد بلا قيمة، بعضهم تملك شققاً في المساكن بعد إقامتها، ولم يتركوا سكنهم، ولا نستطيع

إخراجهم، القانون فى صفهم..

قال آخر:

- عندى شقة إيجارها بعد التخفيض مائة وخمسون قرشا، انتقل صاحبها للمساكن، أغلقها خالية، طلبت منه إخلاءها قال لى: لك إيجارها كل شهر لا أكثر ولا أقل.. صارت ملكهم يا حاج..

قال سرور:

- غير معقول يكون ابنى فى يدى وأفرط فيه، وبعدين أدور عليه.. الحكومة تتولى أمرهم..

صمت الحاج حسن، كل تلك المشاكل كانت تصب عنده، لم يكن يملك إلا تهدئة النفوس، منعًا لنشوب المعارك، يحاول إقناع المتضررين بقوله «إنه قضاء الله، وما شاء الله فعل»..

جاء الأستاذ حسنى، جلس بجوار الحاج حسن، همس فى أذنه:

- كل الناس متخوفة من إسكانهم..

- عملنا ما فى طاقتنا.. اترك الأمر لصاحب الأمر..

اقترب منتصف الليل، سأل الحاج حسن الأستاذ حسنى:

- أعدتم كل شىء لمكانه؟

- خذ مفتاح حجرة الناظر..

قالها الأستاذ حسنى وهو يتأهب للانصراف، قال الحاج حسن:

- خذنى معك..

نهض واقفًا، أقبل فراش المدرسة، جمع الحصر، نقلها إلى حجرته، انصرف الحاج حسن بصحبة الأستاذ حسنى، مرا على العمال يبذلون كل ما فى وسعهم للانتهاء من إعداد الخندق للوافدين، صاح الحاج حسن:

- شدوا حيلكم يا رجال.. الهمة..

قال رئيس العمال:

- إن شاء الله قبل طلوع النهار نكون انتهينا..

- ربنا يقوّيكم..

وانصرف الحاج حسن إلى بيته مودعاً الأستاذ حسنى..

اتجه الأستاذ حسنى إلى مقهى الشجرة، عادته قبل أن يأوى إلى فراشه أن يدخن كرسى معسل، صاح عبدالله ابن الحاج شفيق:

- أهلاً يا أستاذ..

ثم صاح لأخيه خلف النصبة وهو يتجه إلى ترابيزة حولها بعض الشباب يلعبون الورق..

- مطلوب الأستاذ حسنى..

استوقفه الأستاذ حسنى:

- أبوك الله يرحمه كان يحافظ على سمعة القهوة، أنت لا تفتح إلا بعد المغرب..

قال عبدالله:

- لا يوجد زبائن بالنهار..

- يمكن إيجادهم..

- كيف؟

- افعل ما فعله الحاج درويش فى قهوته بالميدان..

- الميدان يشغى بالناس، محطة الأتوبيس، المحلات، الكمسارية والسائقين، موقع ممتاز..

- اشتر تليفزيوناً، يشاهد الشباب مباريات كرة القدم، الأفلام، المسلسلات..

نظر عبدالله إلى الأستاذ حسنى بدهشة وقال:

- والله فكرة يا أستاذ، لماذا لم تخطر على بالى؟

ثم أردف بعد أن أتى بالجوزة:

- إن شاء الله من بكرة أشتريه ولو بالتقسيط.. على الأقل نرحم نفسنا من شغل الليل..

- وتبعد عنكم الشبهات..

- كلامك فى محله يا أستاذ، عليك نور..

غادر الأستاذ حسنى المقهى، مشى على مهل، تطلع إلى عزوز مستغرقاً فى النوم، يعلو شخيره، ساعد الحاج عبده البقال فى إنزال الباب الصاج وإغلاق الأقفال، شكره الحاج عبده بعد أن رفض تلبية دعوته لشرب الشاى:

- الوقت متأخر يا حاج عبده.. تصبح على خير..

الحاج عبده، يغزو ذاكرة الأستاذ حسنى، كبر الرجل، يكاد يكون هو المعمر الثانى بعد الحاج أحمد الفتوة، يقترب من نهاية قرن من العمر، مازال يعمل، مازال عنده أولاد صغار من زوجته التى تزوجها بعد وفاة أم ابنه الكبير، ما شاء الله ثلاث صبيان، وبنت، عاصره شاباً ورجلاً وكهلاً وعجوزاً، يهرول إليه ليشترى الفنضام، واللب، والفول السودانى، يرى العجب العجاب، يسمع الزبائن يطلبون:

- فلفل وكمون وكزبرة.. يا عم عبده..

- حاضر..

- لمبة نمرة ٥ بزجاجتها..

- حاضر..

مرة إثر مرة، وسنة إثر أخرى، يزداد إحاطة بمحتويات دكان عم عبده، اكتشف أنه يحتوى كل ما يبيعه العطار، كل ما يبيعه البقال، كل ما يبيعه محل الأدوات المنزلية، كل ما يبيعه محل الحدادة، لوازم الخياطة، كل البقول من فول، عدس، لوبيا، فاصوليا بيضاء، أرز وذرة، كل ما يلزم البيوت، جاز، سكر، زيت، شاى الشيخ الشريب، يذكره

جيداً لم يكن يشترى أى نوع آخر من الشاى، المكرونة بأنواعها، الخبز.

اشتهر الحاج عبده كأول حاج يخرج من البلدة ويسافر بالطائرة، كما اشتهر بأنه البقال الوحيد الذى يبيع للناس بالشكك.. كل حسب ظروفه، من يحصل على أجره كل أسبوع يبيعه ما يطلب حتى يأتى نهاية الأسبوع فيحصل على ماله، من يحصل على مرتبه بالشهر يأخذ على الحساب حتى أول الشهر، واشتهر أيضا بأنه يرفع أسعار البيع بالشكك عن أسعار البيع نقداً، بدأت تجارته تتقلص عاماً بعد عام، انتشرت الدكاكين، علافة، حدادة، عطارة، مانيفاتورة، الخبز فى«الطابونة»، السكر والزيت والشاى والصابون والجاز عند بقال التموين، صارت تجارته قاصرة على السجائر بأنواعها، والحلويات، وما يندر وجوده فى الدكاكين الأخرى..

مر الأستاذ حسنى على درب الطحان، سمع زوجة أبى سريع تصرخ، بعد لحظة أقبلت نحوه تجرى:

- أغثنى يا أستاذ..

حال بينها وبين زوجها يجرى وراءها بالكرباج فى يده، صرخ فيه:

- إنت اتجننت يا أبو سريع..

- زهقتنى فى عيشتى..

- الدنيا ليل، الناس نائمة، وأنت عامل لك موال..

- غصب عنى يا أستاذ..الحال واقف.. أسرق يعنى..

- ياما قلت لك اشتغل فى البلدية.. رفضت..

- كان الحال ماشى عال العال، والمكسب طيب..

- ربنا يقدرنى وأساعدك..

ثم فى حنو:

- خذها للبيت، ربنا يهدئ الأحوال..

دفع أبو سريع زوجته أمامه :

- إنجرْى على البيت .. تشكر يا أستاذ .. ألف شكر ..

- الشكر لله يا ابنى ..

اقترب من درب العمدة ، قبل أن يدخله إلى بيته ، لمح أنوار كشافات كثيرة ، تضىء عند المدرسة وتحيل الظلمة إلى ضياء ، غز السير يستطلع الأمر ، فوجئ بها كشافات عربات نقل ، فوقها بعض المنقولات وبعض النساء والأولاد والبنات .. اقترب أكثر وجد رهطاً من الرجال فى شبه حلقة نقاش :

- قالوا لنا إقامتكم فى مدرسة ..

- خندق ، الأفضل موتنا فى بيوتنا ..

- خدعونا ، لنعد إلى السويس وليفعل الله بنا ما يشاء ..

- لنقتحم المدرسة ونقيم فيها ..

صاح أحدهم وهو يذهب إلى رئيس العمال :

- من المسئول هنا ؟

رد رئيس العمل :

- لا أحد موجود الآن .. سيكون الخندق معدًا عند الفجر بإذن الله ..

- لا تتعبوا أنفسكم ، لن نقبل الإقامة فيه ..

أخذ الأستاذ حسنى طريقه إلى بيت الحاج حسن برهوم ، تردد قليلاً عند الدرب ، ثم اندفع فالأمر جد خطير ..

## ٢٤

بمجرد أن علم الحاج حسن بقدوم سيارات النقل ، ارتدى ملابسه على عجل ، غادر البيت وصحب الأستاذ حسنى إلى الخندق .. وجد عند

نواصى الشوارع المطلة على الجرن بعض سكان أرض الحديقة، عندما اقترب دنا منه صلاح إمام قائلاً:

- صباح الخير يا حاج، صباح الخير يا أستاذ حسنى..

- أهلا يا صلاح

- أهلا يا أخ صلاح..

سأل صلاح:

- ما الحكاية؟

قال الأستاذ حسنى وصلاح يمشى بجواره خلف الحاج حسن الذى يحث الخطى:

- بعض المهجرين من السويس..

قال صلاح إمام حزينًا كاسف البال:

- كان هذا متوقعاً.. سيخلو خط النار من المدنيين ليقيم فيه الجنود.

لحقا بالحاج حسن وهو يقترب من الخندق، قابله رئيس العمال قائلاً:

- يقولون إنهم دفعة أولى، وفى الطريق دفعة ثانية..

- كم عددهم؟

- لا أدرى، وصلت ثمانى عربات نقل..

توجه الحاج حسن إلى العربات، قابل ثلاثة من الرجال متوسطى العمر، سألهم:

- كم عدد أسركم؟

رد أحدهم، تبين للحاج حسن أنه الموكل بالحديث عنهم:

- عشر أسر، تعدادنا خمسة وستون فرداً..

قال الحاج حسن:

- علمنا أن موعد حضوركم فى الصباح..

- فرصتنا لنخرج من السويس سالمين أن نخرج فى الليل، فبالنهار لا

يتـوقف القـصف من الجانبين، هم يضـربون حائط الصـواريخ، ونحن نضرب الساتر الترابى.. هكذا كل يوم ثم أردف الرجل:

- تركنا بعض أولادنا لحراسة الممتلكات..

ثم أردف دامع العينين:

- ندعو الله ألا يمسسهم سوء..

قال الحاج حسن متأثراً:

- هون عليك يا رجل، قلوبنا معهم..

وبعد برهة، جفف الرجل دموعه بكم قميصه، قال:

- أعرفك بنفسى، أنا عبدالتواب إبراهيم، كنت صاحب محل أقمشة.

- وبضاعتك، أتركتها فى المحل؟

- بالطبع لا، كنت طوال الفترة الماضيـة أحملها على عربة نصف نقل وأذهب بها إلى أسواق الأرياف، بعتها كلها..

- عموماً، على الرحب والسعة أنتم بين أهليكم..

قال عبدالتواب غاضباً:

- لم نجئ لنتكدس فى خندق.. نحن بشر..

تدخل الواقف بجواره قائلاً:

- الصبر يا عبدالتواب، قد نكون جئنا المكان الخطأ، لننتظر عبدالستار.

سأل الحاج حسن:

- من عبدالستار هذا؟

- من السويس هو الآخر، سيأتى مع الباقين، عشر أسر أخرى..

تمشًّى الحاج حسن ينظر إلى العربات، بعض النسوة فوقها فى حال لا يسر، بعض صبية يطلون فى خوف، بنات تنظر إلى الفضاء المجهول..

قال عبدالتواب:

- نساؤنا وبناتنا فى العراء، يرضى من هذا، الله يلعن الصهاينة

ويخسف بهم الأرض..

اتجه الحاج حسن إلى المدرسة، حاذاه صلاح إمام والأستاذ حسني، قال:

- سأفتح لهم المدرسة، يجلسون مؤقتًا في أحد الفصول حتى يحضر المسئول عن تهجيرهم..

- سمعت عن مهجرين كثيرين نقلوا إلى قرى وعزب الشرقية والدقهلية.

قالها صلاح إمام، وانتبه لبعض شباب المهجرين عائدين، تنبه لما يقولون لعبدالتواب ومن معه:

- يوجد مسجدان، ومدرسة أخرى، ويوجد مطعم مفتوح، وآخر مغلق، كما توجد قهوة مفتوحة وأخرى مغلقة، يوجد عند المدرسة محل ألبان.

سأل عبدالتواب:

- والمخبز.. ألا يوجد مخبز؟

قال أحدهم:

- الحقيقة أننا سرنا مع الشارع، وفوجئنا بعودتنا، هذا الشارع دائري، لابد من وجود مخبز خارج المنطقة..

نقل صلاح إمام ما سمع إلى الحاج حسن، والأستاذ حسني، وهما منهمكان في نقل التُخت وإخلاء فصل منها، ساعدهم، طلب منه الحاج حسن دعوة النساء والبنات والأطفال..

توجه صلاح إلى عدد من شباب أرض الحديقة، طلب منهم المعاونة في إفراغ العربات مع ذويها، فيخشى رفض النساء ترك ما استطعن حمله معهن، أطاع الشباب ونفذوا ما أمرهم به، وتم نقل النساء والبنات والأطفال وما بصحبتهم من أمتعة ومنقولات..

جمع الأستاذ حسني وصلاح وبعض الشباب عدداً من الكراسي، رصوها بجوار سور المدرسة في الناحية المطلة على الجرن، دعوا الرجال المهجرين للجلوس فوقها، سأل الحاج حسن ثانية عن العدد، قيل له:

سبعون بالسائقين..

قال الحاج حسن للأستاذ حسنى :

- اذهب إلى بيت يوسف الطعمجى، أيقظه ليعد الإفطار للضيوف.

قال شاب من المهجرين :

- هناك مطعم مفتوح عند الجامع..

وأشار بيده إلى ناحية الجامع الكبير، قال الأستاذ حسنى :

- دكان زعتر..

- اذهب إليه ليعد إفطاراً لهم..

اقترب عبدالتواب إبراهيم وقال فى حياء :

- أخجلتنى بكرمك واهتمامك يا..

- أخوك الحاج حسن برهوم..

- ألف شكر يا حاج حسن..

نظر صلاح إلى ساعة معصمه وقال :

- الثالثة تقترب يا حاج، أتريدنى فى أى خدمة..؟

- ماذا وراءك؟ لن يفيدك نوم ساعتين أو ثلاث..

- ورائى عمل..

- ابق معنا، وأعتمد لك خطاباً بمهمة رسمية..

ضحك صلاح إمام وقال :

- لست موظفاً فى الحكومة يا حاج، أنا فى صندوق تأمين خاص.. لا يعترفون بالمهام الرسمية..

- آه، وسط هذا الجو المشحون نسيت..

وقبل أن ينصرف صلاح قال الحاج حسن :

- كلف بعض شباب شارعكم بالبقاء معنا لأى طارئ..

- أمرك يا حاج..

اقترب صلاح من بعض الشباب يقفون عند ناصية شارعه أشار عليهم بالبقاء رهن إشارة الحاج حسن، أعلنوا موافقتهم:

- تحت أمرك، يوم غياب من المدرسة لا يهم..

***

هب جميع الجالسين وقوفًا وسيارة نقل يمتلئ صندوقها بعدد كبير من عمال النظافة كل منهم يحمل فى يده مقشة لها ذراع طويل من الخشب، ألقوا بها أرضًا، ثم تبعوا المقشات بإلقاء غلقان من الخوص، وخلفهم جاءت عربة كبيرة لجمع القمامة، تقدم المسئول عنهم من مجلس الرجال وقال:

- عمال البلدية، كُلفنا بكنس ورش المنطقة..

- لماذا؟

سأل الحاج حسن مندهشًا:

- ربما تأتى شخصية كبيرة للمنطقة..

علق الأستاذ حسنى وقد عاد لتوه من المطعم:

- يمكن لافتتاح الخندق..

خبط الحاج حسن راحتيه فى تعجب مشوب بالأسى وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، افتتاح مدرسة معقول، مستشفى أمر منطقى، مصنع.. لكن افتتاح خندق!!

بدأ عمال النظافة فى العمل، وزعهم الملاحظ على الشوارع، وفى داير الناحية، بعد قليل جاءت عربة كبيرة فنطاس تحمل ماءً للرش..

انتحى الأستاذ حسنى بالحاج حسن جانبًا وقال هامساً:

- طلبت من زعتر إعداد مائة وخمسين رغيفًا نصفها فول والآخر طعمية.

قال الحاج حسن منبهًا:

- اطلب منه أن يلف كل رغيفين وحدهما واحد فول والآخر

طعمية... وادخل بها المدرسة..

فهم الأستاذ حسنى ما يرمى إليه الحاج حسن، أومأ برأسه علامة الفهم، قال بعدها:

- ليلة طويلة مرت علينا..النهار بدأ يشقشق..

ارتفع إلى عنان السماء آذان الفجر، استأذن الحاج حسن والأستاذ حسنى من الرجال المهاجرين قائلاً:

- نصلى فرض الله ونعود..

صحبهم عبدالتواب إبراهيم وخمسة آخرون، أخذوا طريقهم نحو المسجد، عندما مر الحاج حسن أمام مطعم زعتر قال له:

- جهز السندوتشات، بعد الصلاة نأخذها منك..

- حاضر يا حاج..

لحق بهم بعض شباب المنطقة لأداء صلاة الفجر، قال الحاج حسن لأحدهم:

- انتظر وأصدقاؤك بعد الصلاة..

- أمرك يا حاج..

أدى المصلون صلاة الفجر، قام الحاج حسن برهوم، وقف إلى جوار الإمام وقال:

- أعتقد أنكم جميعًا عرفتم بحضور عدد من أسر المهاجرين من السويس، وقد تحدثنا بالأمس فى هذا الموضوع، وأنتم تدركون جيداً معنى الضيافة، مبدئيّا، دبروا أمر الغداء، حتى نرى ما ينتهى إليه يومنا هذا.

خرج يتبعه من صحبه من المهاجرين، توقفوا عند المطعم، دعا الحاج حسن الشباب لحمل السندوتشات إلى المدرسة..

أفسحوا الطريق لسيارة نقل أخرى، يعتليها ثلاثة أشخاص، تحمل ما بدا وكأنه بعض الزهور..

علق الأستاذ حسنى قائلاً:

- يبدو أن المحافظ سيحضر بنفسه..

قال الحاج حسن:

- الأمر لا يستحق.. إذا حدث فعلاً...

ولم يكمل، رمقه الأستاذ حسنى وقال:

- ما يدور برأسك هو نفسه ما يدور برأسى..

تبادلا الضحكات، اقتربوا من المدرسة، الشارع الدائرى يبرق بعد كنسه وغسله بالماء، أوشك العمال على الانتهاء من إعداد الخندق، سأل الحاج حسن رئيسهم:

- ما الموقف الآن..

- لم يبق إلا إقامة القواطع الفاصلة، أرسلنا فى طلبها..

- لمن هذه الزهور؟

- يقال إن شخصية كبيرة ستحضر لافتتاح الخندق..

علق الحاج حسن فى سخرية:

- كبيرة كبيرة..

قال رئيس العمل مجاريًا الحاج حسن فى سخريته:

- مادامت إصص الزهور وصلت، بعد قليل يصل البساط الأحمر، وقد يقام سرادق فى الشارع، أعرف هذه البروتوكولات..

تقترب الساعة من السادسة، سيارات صغيرة تأتى وتذهب، أفندية يلقون نظرات عجلى على ما تم من أعمال، من يهتم بالخندق، من يهتم بالنظافة، من يتأكد من وصول إصص الزهور، جاءت عربة رمل، أفرغت حمولتها، قام بعض العمال المصاحبين لها بفرشه على هيئة شريط عريض حتى باب الخندق، رصت إصص الزهور على جانبيه، يصل ما بين الأسفلت ومدخل الخندق..

أقبلت من ناحية الميدان قافلة السيارات النقل الأخرى، تحمل

كسابقاتها الأثاث والمنقولات والبشر، نزل عبدالستار، اقترب من عبدالتواب الذى عاجله بالسؤال:

- هل هذا هو المكان؟

قال عبدالستار بعد أن شمل المكان بما فيه بنظرة:

- أين الأولاد؟

- فى المدرسة..

- ماذا يحدث هنا؟

- يعدون لنا خندقًا يقينا من غارات الطائرات، ودانات المدافع..

قال عبدالستار فى ثورة وهياج:

- تقول خندق..

- تعال.. عاينه بنفسك..

جذب عبدالتواب عبدالستار من يده، اقترب به من باب الخندق، استوقفه رئيس العمال:

- من فضلك، ممنوع حتى يتسلمه المهندس المسئول..

سأل عبدالستار رئيس العمال:

- لمن أعد هذا الخندق؟

قال رئيس العمال بعد تردد:

- سمعت أحدهم يقول لمهاجرى السويس..

ارتفع صوت عبدالستار، يشتم، يسب، يلعن، ينتفض جسده، اندفع نحو دورة المياه الخشبية يقفز عاليا ويركلها بقدميه، يحاول تحطيمها، أمسك به بعضهم، هتف عبدالتواب:

- اهدأ يا عبدالستار.. اهدأ حتى نتبين الموقف..

- أهدأ.. كيف؟ أخرجونا من ديارنا بحجة الخوف علينا، لا.. نحن لا نخاف، سنعود إلى بيوتنا، نموت، نحيا هذا شأننا..

فوجئ الجميع بما ألجم الألسنة، شد العيون، أثار الانتباه، تطلعوا نحو سيارة صندوق كبيرة، يقفز منها جنود مدججون بالسلاح والهروات، تبعتها سيارة أخرى مثلها اصطف جنود السيارتين عدة صفوف، دقوا الأسفلت بخطواتهم المنتظمة، استيقظ من كان نائمًا، فتحت النوافذ والبلكونات، خرج من كان يرتدى ملابسه يستكملها وهو يطل على المنظر، أنبتت الشوارع والدروب والأزقة أرتالاً من الأطفال والصبية ودفعت بهم، تجمع بعضهم يقلدون ما يرونه، يضحكون، يخافون تهديد الصول لهم، يجرون، يعودون، يتفرق الجند في طوابير يصطفون على جانبى الشارع الدائرى عند اتصاله بشارع يفضى إلى الميدان..

تأكد للجميع أن شخصية كبيرة تحضر فعلاً الافتتاح، خمن بعضهم أن يكون المحافظ، قال آخر:

- هذا الهيلمان لا يكون لمحافظ، لاشك أنه وزير..

علق ثالث فى مرارة:

- لم لا يكون مأمور القسم؟

قال شاب صغير السن:

- هذه الاستعدادات لا تكون لمأمور.. هى للوزراء فقط، المعروف أن كل محافظ يقال أنه بدرجة وزير..

قال أحد المهجرين:

- كلام الشاب صحيح، كنا نسمع فى محافظتنا قولهم سيادة الوزير المحافظ..

اقترب الأستاذ حسنى من الحاج حسن وقال:

- هيا نذهب لنعد أنفسنا لاستقبال من يحضر..

شوح الحاج حسن برهوم بيده وقال:

- لست من كدابين الزفة.. يأتى أو لا يأتى، شىء لا يهمنى..

ثم اتجه إلى بوابة المدرسة، صاح فى الفراش:

- هات الحصير يا عبده..

أسرع عبده بإحضار ثلاث حصر، فرشها حيث أشار الحاج حسن، خلع مداسه واتخذ مجلسه مسنداً ظهره إلى سور المدرسة..

أقبل ناظر المدرسة، ألقى تحية الصباح على الحاج حسن، رد الحاج حسن تحيته، ثم استوقفه قائلاً:

- لا أظن فيه تدريس اليوم يا حضرة الناظر..

- لم يا حاج؟ هل جاءت أوامر بإلغاء الدراسة اليوم؟

- لا أوامر، وإنما أمر واقع..

- ما قصدك؟

قال الحاج حسن وهو يشير إليه بيده:

- ادخل وأنت تعرف..

اجتاز الناظر بوابة المدرسة، لاحظ وجود التخت مرصوصة فى الطرقة التى تفتح عليها أبواب فصول الدور الأرضى، قال للفراش:

- من أخرجها من الفصول ؟

قال الفراش مرتعباً:

- الحاج حسن أمر بإخلاء فصلين..

- لم؟

قبل أن يتجه إلى أحد الفصلين أوقفه الفراش:

- بها حريم من السويس..

توقف الناظر، دار حول نفسه، سأل الفراش:

- أين المدرسون؟

- فى الخارج يتفرجون.. يقال إن البيه المحافظ سيأتى..

خرج الناظر مسرعاً، قال للحاج حسن:

- تصرفك سيؤذينى يا حاج، مسئولية المدرسة مسئوليتى..

- ونحن شركاء لك فى هذه المسئولية..

- من قال هذا يا حاج؟

- قاله من أمر بأن تكون المدرسة مقرًا للنشاط السياسى.. لا تصعب الأمور يا حضرة الناظر.. دعها تمر.. ما قولك فيما سيحدث؟

- أنا فيما هو حادث فعلاً، كيف أتصرف؟

- لننتظر ونرى..

أعلنت سيارة شرطة عن مقدمها بإطلاق سرينتها عالياً، مرت بين صفى الجنود مع استدارة الشارع، وقفت قرب الممشى الرملى، نزل منها ضابط يحمل رتبة كبيرة فوق كتفيه، أسرع إليه قادة الجنود وأدوا تحية عسكرية، مشى فوق الممشى الرملى حتى باب الخندق، وقف وألقى نظرة على البيوت المطلة على الطريق، أشار إلى آخر لحق به، تطلع مثله إلى البيوت، هز الأخير رأسه، واتجه إلى السيارة، جلس يتحدث داخلها فى ميكروفون، يبلغ رسالة..

قبل نصف ساعة جاءت سيارة أخرى محملة بعدد كبير من رجال المباحث، دخلوا البيوت وقفوا فى الشرفات وفوق الأسطح، هرعت النسوة ببناتهن وصغارهن إلى الشارع، طالب الحاج حسن الأستاذ حسنى بالتوجه إليهن وطمأنتهن، وإعادتهن إلى بيوتهن..

بعد قليل عاد الأستاذ حسنى وقال مازحاً:

- عدن إلى بيوتهن، وطلبت منهن أن يزغردن عندما يصل الوزير..

كان الأستاذ حسنى قد خطف رجله إلى البيت، غير ملابسه وارتدى حلة سوداء يدخرها للمناسبات، لون الكرافتة يناسب لون الحلة، والحذاء الأسود يلمع، مصمص الحاج حسن شفتيه، خلع عمامته ومسح رأسه.

يتطلع الحاج حسن إلى السماء ضارعاً:

- يا رب ينتهي اليوم على خير..

جاءت سيارة نقل صغيرة، ألقت المشايات الحمراء أرضا، قام عامل يرافقها بفرشها على امتداد الممشى الرملى، ثم عاد إلى السيارة التى انطلقت.

اكتملت اللوحة بوصول المشايات الحمراء، تتطلع كل الأعين إلى الجهة التى تهل منها السيارات، يتوقع الجميع وصول الركب..

وصل مأمور القسم، تبعه أمين لجنة الاتحاد الاشتراكى، تبعه بعض الشخصيات، وقف الجميع فى الانتظار..

يتابع الحاج حسن بعينيه مأمور القسم يتمشى، يقترب من مجلسه، وضع العمامة فوق رأسه، قام، دس قدميه فى المداس، اقترب المأمور، حياه قائلاً:

- أهلاً يا عمدة..

- أهلاً بك يا حضرة المأمور..

قدم الحاج حسن ناظر المدرسة للمأمور، أسرع الناظر وأحضر كرسيًا، دعا المأمور للجلوس، جلس المأمور شاكراً..

- شاى أم قهوة يا بيه..

قالها الحاج حسن بصوت خفيض، قال المأمور:

- أشكرك يا عمدة.. كلها نصف ساعة وينفض المولد..

- مولد سيدى عباس انفض ولم يعد يقام..

قال المأمور كمن تذكر:

- فكرتنى يا عمدة، ما السر فى هذا؟

- لا أسرار، الشيخ علىّ إمام المسجد أقنع الناس بأنه حرام.. فامتنعوا عن إقامته..

- والله ربحنا الشيخ عليّ.. كنا نحمل همّا لهذا اليوم.. محاضر، اتهامات، مصائب، الحمد لله..

انتفض المأمور واقفًا، عدل هندامه، قال وهو يسرع ناحية الشارع عند بداية الممشى

- الركب شرف..

أقبل موتوسيكل سرينته لا تتوقف، دب الجنود على الصفين الأرض بأقدامهم، توالى اقتراب عدد من السيارات السوداء الفارهة، تفتح الأبواب، ينزل الأفندية فى حللهم القشيبة، وجوههم اللامعة، تقدم ركبهم رجل أشار إليه من بعيد الأستاذ حسنى وقال:

- المحافظ يا حاج حسن..

مشى المحافظ فوق الشريط الأحمر حتى باب الخندق، دخله وخلفه عدد كبير من الشخصيات التى تصحبه، الناس فى كل مكان تتطلع فى صمت، يتحدثون فى همس، يتبادلون الغمزات بالأعين، والإشارات بالأيدى، خرج المحافظ، منديله فى يده يجفف عرقه، تبادل الحديث مع بعض معاونيه.. أشار عليهم ببعض الأوامر، هزوا رؤوسهم بالطاعة.. اتجه عائدا، اقترب من السيارة، فوجئ الجمع الغفير بشخص يندفع صائحاً:

- يا سيادة الوزير، يا سيادة الوزير..

توقف المحافظ، أشار لمن أرادوا منعه من الاقتراب فتركوه يمر، وقف يتحدث معه..

قال عبدالتواب إبراهيم للحاج حسن وكان واقفًا إلى جواره:

- هذا عبدالستار..

- الثائر على الوضع..

وأخذ يتابع، ركب المحافظ سيارته، دفع بعبدالستار إلى سيارة أخرى، أغلقت أبواب السيارات، انطلق الركب عائداً من حيث جاء..

بعدها بلحظات دبت الحياة فى كل ما كان صامتاً، الجنود يتقافزون فى عرباتهم، الأشرطة، إصص الزهور، العمال، خلت الساحة والشوارع من كل ما كان بها كأن شيئاً لم يكن..

تهالك عبدالتواب إبراهيم على الأرض صارخاً:

- يا أولاد الذين كفروا..

قال الحاج حسن وغصات فى حلقه كثيرة:

- هوّن عليك يا عبدالتواب، أنا أديت ما فى إمكانى، فتحت لكم المدرسة، وأمامكم الخندق، ابقوا حيث تشاؤون..

ثم أردف وهو يتأبط ذراع الأستاذ حسنى:

- بعد العصر أعرف قراركم..

انصرف الحاج حسن والأستاذ حسنى، وفى الطريق قال:

- غداء هؤلاء الناس فى رقبتنا.. أنا سأرسل لـ...

وعدّد أسماء من يساهمون فى إعداد الغداء للمهجرين، وطلب من الأستاذ حسنى أن يطلب مساهمة عدد من الأشخاص فى إعداد العشاء.

هدأ الجو، ولم يهدأ، انصرف أناس وبقى آخرون، انتقل بقية المهجرين إلى المدرسة، أخليت فصول أخرى، انصرفت العربات التى جاءت بهم،المهجرون والذين بقوا من أهل المنطقة يتطلعون إلى رجوع الشخص الذى دفع به إلى السيارة التالية لسيارة المحافظ..

خيبت عودة عبدالستار الظنون السيئة التى مرحت فى العقول - بعد أقل من ساعة - قدم لكل فرد من المهجرين ثلاثة جنيهات، مع التوقيع بالاستلام، قال وهو يتجه نحو الخندق:

- الإقامة مؤقتة لحين تدبير سكن..

مصمص عبدالتواب إبراهيم شفتيه، يردد:

- عليه العوض ومنه العوض..

## ٢٥

يكرر البعض ويعيد بعض الأحداث بقصد التندر، والبعض الآخر يضيف إليها ليصنع منها أسطورة تتناقلها الأجيال.. يضم الفريق الأول الحاج حسن والأستاذ حسنى وصلاح إمام، ويضم الفريق الثانى كل الأهالى.

يقول الحاج حسن:

- الركب فخيم، رمل وزهور وبسط حمراء، والموضوع كله خندق تحت الأرض، ترفض الكلاب العيش فيه..

يكمل الأستاذ حسنى:

- المهم المنطقة استفادت حملة نظافة لم تحدث من قبل..

قال صلاح إمام:

- حدثت يا أستاذ حسنى.. هل نسيت؟

قال الحاج حسن:

- الأستاذ حسنى خرج إلى المعاش.. لم تعد ذاكرته..

قاطعه الأستاذ حسنى:

- ذاكرتى بخير يا حاج، أيام منظمة الشباب.. أذكر جيداً..

قال صلاح إمام:

- كانت أيام، ذهبت منظمة الشباب وجاء التنظيم الطليعى..

خبط الأستاذ حسنى فخذه بيده وقال:

- نحن أحسن أمة فى كل الأمم فى اختراع النظم والأسماء والشعارات والهتافات.. هؤلاء الذين يعيشون فى الخندق، وفى المدرسة، هم أيضا هتفوا بالروح بالدم..

قال الحاج حسن فى هدوئه المعهود:

- الشعوب دائما مطية وضحية، ليس عندنا فقط بل فى كل الدنيا، باسم الشعوب تتغير النظم، باسم الشعوب تقوم الحروب، باسم الشعوب ترتكب المذابح، باسم الشعوب، قس على ذلك كل الأمور..

جلسة ودية جمعت بينهم فى بيت صلاح إمام، قام بدعوة كل من الحاج حسن والأستاذ حسنى وسيد برهوم دعته زوجته أخت صلاح لحضور عيد الميلاد الأول لماهر ابن صلاح إمام، قبل إطفاء الشموع - وضع صلاح إمام خمس شمعات فى التورتة قائلا لها:

- ثلاث شمعات للأب والأم وولى العهد وشمعتان مدة زواجنا..

انصرفت أخته وزوجها وأولادها، وانصرفت أسرتها وأسرته، وبقى الحاج حسن والأستاذ حسنى، استبقاهما صلاح ليعرض عليهما موضوعاً أسرّ به حماه الأستاذ سلامة فى أذنه، قال صلاح إمام للحاج حسن:

- صلى على النبى يا حاج، عليه الصلاة والسلام..

- عليه الصلاة والسلام..

قالها كل من الحاج حسن والأستاذ حسنى، استطرد صلاح قائلاً:

- الأستاذ سلامة، حماى، لديه رغبة شديدة لدخول الانتخابات القادمة، يتمنى أن يصبح عضواً فى لجنة العشرين..

- يا خويا على الرحب والسعة، أى اسم يتقدم ينجح..

قال صلاح:

- طلب منى أن يصحبك فى جولاتك الانتخابية وتقدمه للناس، يريد ضمان النجاح..

ابتسم الحاج حسن وقال:

- لم أقم أبداً بجولة انتخابية، أنجح بأصوات أهل البلد، أنا لا أنسى يوم اجتمعنا فى أول انتخابات، كنا عشرة، أقسمنا على المصحف الشريف أن تضمنا قائمة واحدة، ثم اكتشفت أن بعض أعضاء القائمة، انضموا

لقوائم أخرى وحلفوا اليمين.. العملية كلها لا تستحق الحنث بالقسم.. ثم إن حماك له شهرة أكثر منى، يطلق عليه الناس المربى الفاضل.

- يعنى أبلغه بموافقتك على تزكيته..

- أنا مستعد أزكيه عن نفسي، وأضمن له أصوات البلدة كلها..

قال الأستاذ حسنى مشاركاً فى الحديث:

- عندى إحساس بأن أى انتخابات تجرى، لن يشارك فيها الأسماء التى شاركت من قبل.. الناس زهقت من السياسة..

قال الحاج حسن ردّا على الأستاذ حسنى:

- يهيأ لك.. بعض الناس عندهم السياسة إدمان.. ولا يدركون أنها ضحك على الذقون، سمعنا عن سقوط دولة المخابرات، هل سقطت فعلاً؟

قال الأستاذ حسنى:

- سقطت فعلاً، أجريت المحاكمات، و...

قاطعه صلاح إمام:

- مازالت موجودة، لكن بصورة أخرى، بدليل أن ما يقوله الناس يطالعونه فى الصحف..

قال الحاج حسن:

- هذا الموضوع يحيرنى، توقفنا عن إرسال التقارير الأسبوعية والشهرية بعد الهزيمة، لم نُطالب بها، مم يستقى الكتّاب ما يقوله الشعب، كيف؟

قال صلاح:

- بالعكس، التقارير مازالت موجودة، قبل الهزيمة كانت تصاغ فى الخطب، بعد الهزيمة يصيغها الكتاب، أتذكر أن الناس كانت تفكر، تتكلم، تغضب، تتهم النظام، تمتص الخطبة فى أى مناسبة غضب الناس، بل ويكتشف بعضهم أنه أساء الظن فى تفكيره.. الصحافة

حاليًا هى التى تمتص غضب الناس.. ما يقوله الناس يرونه مكتوبًا بها، إذن فالدولة تقرأ ما يقال..

قال الأستاذ حسنى متداركًا عن المحاكمات وسقوط دولة المخابرات:

- سمعت أن هناك تنظيمًا يقال عنه طليعى..

- تغيير فى المسميات ليس إلا..

قالها الحاج حسن، أردف فى أسى واستياء:

- لعبة الكراسى الموسيقية، التعبير قاله ابنى حمدى، يردد بكثرة فى الجامعة.

قام الحاج حسن والأستاذ حسنى للانصراف، ودعهما صلاح إمام قائلاً:

- بإذن الله، سأحضر والأستاذ سلامة لزيارتك يا حاج، ليعرف تأييدك ومساعدتك له بنفسه..

- يا ألف مرحباً..

قال صلاح لها:

- بالطبع، سمعت كل ما قيل..

هزت رأسها علامة الموافقة، قالت:

- ليته ينجح حتى ترتاح أمى من مشاكل إقامته الدائمة بالبيت..



٢٦

انزوت الأحاديث عن زيارة المحافظ، ألقيت فى سلة المهملات، وبدأ الحديث يسيطر على كل اللقاءات الثنائية، الثلاثية، الرباعية، الخماسية، الجماعية، الرجال، النساء، الشباب، فى المقهى، فى الحجرات، على المصاطب، فى المدرسة، فى المطعم، فى الأفراح، وسرادقات العزاء، تدور كلها حول سماح وتوصلها إلى ورثة أم سعد، وشراء بيتها المهجور منذ

أمد طويل، قامت بإزالة حوائطه المتهدمة، وبدأت فى إنشاء بيت جديد، يحفر العمال الأرض لوضع القواعد المسلحة.

نقل عنها عزوز رغبتها فى إقامة مشغل للبنات، فى الدور الأرضى، وتقيم أمها فى الدور الثانى، وأبدت استعدادها لبناء شقق أخرى لتأجيرها دون مقدم أو خلو..

يقوم عزوز بمتابعة الأعمال، ما يحتاجه العمال من إعداد الشاى، وإعداد وجبة الغداء اليومية، يلتقى به كارم كل مساء، يعرف منه ما تكبد من مصاريف، ومطالب اليوم التالى، يقيد بها بياناً، وينقل صورة ما تم لسماح، تحضر سماح عند بداية كل مرحلة، تنفح العمال ما تجود به نفسها، تقضى بعض الوقت مع أمها، تترك بعد انصرافها موضوعاً للجيران يقضون الأمسيات فى الحديث حوله..

فاجأت سماح كارم ذات مساء متسائلة:

– ما رأيك فى ابن عبدالعال، أتعرفه؟

– عمه المرحوم شفيق..

– هو بعينه، قابلنى فى زيارتى الماضية، وطلب منى مساعدته فى افتتاح محل موبيليا فى بيت عمه..

تردد كارم فى الإجابة، قال:

– أعطنى فرصة أسأل عنه..

دهش كارم مما سمع، يعرف ابن عبدالعال جيداً، قام بعدة مشاريع فشلت كلها، تحت يديه دكانان فى بيت عمه، قام بافتتاح مطعم، كلفه مبلغاً كبيراً، دكان يعد فيه الفول، يستأجر صبية لتنقية الفول من الشوائب، بعد غسله يضعه فى القدر على النار حتى تمام النضج، يدق الفول مع الخضرة حتى يتم صنع عجينة الطعمية، تهيئة الباذنجان للقلى والتخليل، الخيار، اللفت، الفلفل مقليا ومخللاً، وفى الدكان الآخر

وضع أربع ترابيزات، حول كل ترابيزة أربعة كراسى، غطى الترابيزات بمفارش بيضاء من القماش، فوق كل ترابيزة ملاحة، وشفشق للماء وكوب، وخصّص عاملاً لتلقى طلبات الزبائن وتقديمها.. أخذ مكانه بين الدكانين خلف ترابيزة صغيرة بها بعض الأدراج، يتسلم أثمان ما يطلبه الزبائن ويمنحهم البونات لتقديمها إلى البائع وأخذ طلباتهم فول أو طعمية أو مخللات أو مقليات، ويحاسب زبائن الترابيزات حسب طلباتهم.. فى بادئ الأمر شجعه شباب الحى وصبيانه، أحس بنوع من الرواج، بدأ يترك مكانه ومباشرته للعمال، يذهب إلى المقهى يتناول الشاى، لمجالسة صديق، للعب الكوتشينة، أو الطاولة، بدأ يظهر إهمال العمال، الزبائن تضج بالشكوى من سوء المعاملة، ينصرفون إلى مطعم آخر، وجد الفشل نصب عينيه، إما أن يغير النشاط أو يتكبد المزيد من الخسارة.. فأغلق الدكانين..

بعد عدة أشهر فتح الدكانين، تخلص من أدوات المطعم بالبيع، وضع فى أحدهما مكتباً وعدة كراسى، وفى الأخرى أنتريه، كتب معلناً عن مشروعه الجديد لافتة من الخشب «سمسار شقق ودكاكين وعقارات».. تحول إلى ما يشبه المقهى، يجتمع أصحابه عنده يتناولون الشاى والقهوة ويلعبون الطاولة، ظل عدة أشهر دون لجوء زبون إليه، ألغى النشاط وباع الأثاث وأغلق الدكانين..

يعرف كارم كل هذا، لم يشأ إخبار سماح به، فى مساء نفس اليوم كتب لأخيه كامل خطابا يرجوه فيه العودة، وبما حصل عليه من مال يمكنهما البدء بمشروع، وإذا احتاجا تمويلاً إضافيًا يمكنهما الحصول عليه من سماح، فهى مستعدة لخدمة كل من هو جاد، وموثوق به، ويقدر تماماً المسئولية..

***

بعد عدة أسابيع، قالت بعد أن أطلعها على ما تم صرفه فى عملية البناء.

- لم تفدنى عن ابن عبدالعال..

قال كارم بعد فترة صمت:

- ما رأيك لو تقدم غيره، ليس طالبًا للمساعدة، وإنما طلباً للمشاركة فى مشروع هل توافقين؟

- المهم أن يكون جادًا وموثوقاً فيه..

- ما رأيك فى أخى كامل؟ أعتقد أنك تعرفينه..

رأى كارم بعينيه ما ألجم لسانه وفكره، رأى انتفاضة جسدها، ارتباكها، تلعثمها، بعد شهقة خرجت عفو الخاطر، قالت ما سمعه بأذنيه:

- كامل، طبعاً أعرفه، لو طلب حياتى لا أبخل بها عليه..

قال كارم وأفكار متلاطمة تدور فى رأسه:

- لا أخفى عليك، إننى كتبت إليه، طلبت منه العودة السريعة..

قاطعته سماح بلهفة:

- ورد عليك..

أرخت هدباها، بدت عيناها نصف مفتوحة نصف مغلقة، ترى صورتها فى يديها، تقبلها وتودعها مع الرسالة داخل المظروف، تخط العنوان، تلصق طابع البريد، تودعه بنفسها صندوق البريد ليطمئن قلبها على وصوله، تنتظر كل يوم حامل البريد، يحمل إليها نبض قلبها التائه فى الفضاء،

قال كارم:

- مازلت فى انتظار الرد..

تتطلع إلى صورتها بين يديه، يقبلها، يقرأ كلماتها، يستعيد ذكرياتهما، تدمع عيناه، يلملم أشياءه يستعد لسفر الرجوع..

هزت رأسها:

- ماذا قلت؟

- قلت لم يصلنى رده حتى الآن..

قالت وهى تغادر مكانها:

- أتمنى أن يرد عليك..

قام كارم مستأذنًا، صافحها، خرج وفى رأسه يقين أنها تحمل لأخيه مشاعر فياضة، وولهاً وربما نسجت حوله أحلاماً راودتها أو عاشتها..

***

نقل كارم إلى أبويه ما رآه، ما سمعه، ما أحسه، وأعلن لهما ما خمنه.

فرحت أمه كثيراً وقالت:

- يا ريت، يرجع ويتزوجها.. أكتب له يا كارم..

قال الأب:

- يقول لى قلبى أنها من نصيبه..

قال كارم:

- سأكتب له حالا..

ودعهما واتجه إلى شقته، تدور فى رأسه كلمات الرسالة كلمة كلمة وحرفاً حرفاً.




بانت فى الأفق نذر معركة، منذ منتصف النهار بدا واضحاً إحجام سكان بلوك ٥ ، ٦ عن العبور إلى الدكاكين والمحلات لشراء لوازمهم، لوحظ بعضهم وقد عاد من ناحية الميدان حاملاً مشترواته، تساءل البقال، الخردواتى، وصاحب المخبز، عما يحدث.. لم يجد أى منهم عند الآخرين إجابة..

يقف شباب المساكن فى تجمعات صغيرة عند نواصى البلوكين، يتطلعون ناحية البلدة، يتحدثون، يتمشون، يمنع بعضهم من يأتون من بلوكات أخرى من عبور الشارع ويشيرون لهم ناحية الميدان..

همس البقال فى أذن صبى جاوزالثانية عشرة من عمره بشىء من الحذر:

- لف من وراء البلوكات، واقترب من أى مجموعة، أنصت لما يقولون.

جرى الصبى حتى آخر بلوك، لف، جاء من الشارع الآخر، اقترب على مهل، تباطأت خطواته أكثر فأكثر.. أرهف أذنيه، نهره أحدهم:

- ماشى على قشر بيض وحياة أمك، امش..

خاف الصبى، عبر الشارع، وقف يلهث، بعد قليل اقترب من البقال وقال:

- لم أسمع كلامهم، لكنى لاحظت خلف أحدهم شومة كبيرة..

جذب البقال كرسيًا من داخل دكانه، جلس فوقه يراقب الموقف..

خرجت سيدة كبيرة فى السن، وقفت مع أقرب الجماعات إليها، حاولت أخذ الشومة من يد أحدهم، حاول الاحتفاظ بها، حاورها، زعقت فيه:

- كفايانا مصائب..

ألقى الشاب بالشومة لآخر، أخذها ومشى مبتعداً..

ارتفع صوتها، وصل آذان أصحاب الدكاكين على الرصيف الآخر:

- أرقع بالصوات، ألم عليكم الناس.. ارجع يا حسين وهات الشومة.

حاول آخر دفعها نحو مدخل البلوك، دفعته بعيداً، صاحت:

- يا معلم حنفى، تسمح..

تطلع المعلم حنفى صاحب المخبز ناحيتها، وضع يده على صدره:

- أنا..

- أرجوك تعالى..

عبر المعلم حنفى عرض الطريق، اتجهت نحوه وهو يقترب، وقفت قائلة:
- ساعدنى أرجوك فى حل المشكلة، الولاد ناويين يصوروا قتيل..
- قال فى دهشة:
- من المقصود كفى الله الشر؟
- أحمد عيد.. أبوه كان جزار..
- أيوه.. أعرفه.. ماذا فعل؟
- عمايله سودا بعيد عنك.. اعتدى على بنت يتيمة الأب، ضيعها، الولاد متحفزين له، منتظرين يشوفوه.. ساعدنى الله يخليك، نعمل إيه؟
قال المعلم حنفى متحيراً:
- كيف حدث هذا؟ متى؟
- الله أعلم.. البنت خرجت تقابله، وخايفة أما ترجع تقوم العاركة.
تركها المعلم حنفى، اقترب من أقرب مجموعة من الشباب، قال:
- تفتكروا ضربه، تكسيره، أو حتى قتله يحل المشكلة..
رد أحدهم بغيظ وغضب:
- ننتقم لشرفنا على الأقل..
- وبعدها السجن..
رد الشاب ثانية:
- سجن سجن، أحسن من العيشة فى عار..
دنا المعلم حنفى من الشاب، أمسك بذراعه وقال:
- تعال، تعال يا ابنى ونحاول إيجاد الحل..
حاول الشاب التخلص، أحكم المعلم حنفى قبضته وقال:
- لكل مشكلة حل.. العنف نتيجته خراب ودمار.. أنتم أضعف من أهل البلد.. أبو سريع وحده ممكن يطفشكم.. اهدأ، بالعقل تحل كل مشكلة.
قال وهو يمر بالسيدة:

- لا تخافى.. ربنا يساعدنا نحلها سلماً..

وقال للشاب:

- اسمك؟

- اسمى علىّ..

- وجهك غريب عن أهل المساكن..

قال الشاب وهما يقتربان من المخبز:

- أنا من السيدة، البنت قريبة لى.. أمها ابنة عمى..

- نصيحتى حتى لا تتسع المشكلة، اذهب واصرف تجمعات الشباب، عد إلىَّ نذهب إلى كبير البلدة، إن شاء الله يحل المشكلة كماتحبون وترضون..

- لا أقدر على تنفيذ طلبك، لا أعرف أغلبهم..

- اصرف من تعرفهم، تجمعهم يثير الريبة، قد يصل أى خبر لشباب البلدة وتقوم القيامة، دون حتى معرفة سبب المشكلة..

ثم أردف:

- وياريت، تحضر أمها معك لمقابلة الحاج حسن وعرض مشكلتها أمامه.. نفذ ما أقوله لك لنتحاشى معركة لا نعرف لها نهاية..

انصاع الشاب علىّ لنصح المعلم حنفى، انصرف لتنفيذه..

قال المعلم حنفى لأحد عماله:

- أنا ذاهب عند الحاج حسن برهوم، لو رأيتم أحمد عيد ابن المعلم عيد الجزار، يحضره أحدكم إلينا..

ومشى بضع خطوات، وقف عند ناصية الشارع المفضى إلى البلدة، ويواجه درب الطحان.. أقبل علىّ ومعه أم البنت، تتعثر فى مشيتها، دموعها لا تكف، تكاد لا ترى الطريق أمامها، قال المعلم حنفى:

- كل شيء يمكن إصلاحه

ردت من خلال دموعها وشهيقها :

- بنتي الوحيدة، يتيمة الأب، لو كان الله يرحمه عايش كان طيَّر رقبته.

قال المعلم حنفي وهو يتخيل حاله، لا بيع ولا شراء، يتعطل الفرن ويتوقف الحال :

- كلنا عندنا بنات، ونعرف معني الشرف. اطمئني، امسحي دموعك.

تلقى الحاج حسن ضيوفه بدهشة واستغراب، تساءل بعينيه قبل أن يسأل :

- خيراً يا معلم حنفي..

- مشكلة مع أهل المساكن تسبب فيها أحمد عيد..

- ابن عيد الجزار..

- أيوه يا حاج.. والبنت بنتي،...

قاطعها الحاج حسن :

- لعنة الله عليه..

قال المعلم حنفي :

- ستقول لك الموضوع، وأنا سأبحث عنه وأحضره..

انصرف المعلم حنفي، جلست السيدة تحكى للحاج حسن :

- لم نتوقع منه الغدر، أنا يا حاج أكد وأشقى لأوفر ما يعيننا على الحياة، أترك بنتي في الشقة وأعود قرب العصر، منذ شهر تقريباً، قالت لي إن أحمد يحبها، المهم، زارنا وحدثني في الموضوع، رحبت به، سألته عن إمكانياته، قال لي : «ربنا يسهل» قلت له : «طيب يا ابني حاليا قل لي إمكانياتك». قال لي : «أنا حاليا أبحث عن عمل، ولا أملك شيئاً».. قلت له : «طيب يا ابني أما تشتغل، وتدبر أمورك تجدنا تحت أمرك..» المصيبة إنه كان يتردد على البنت وهي وحدها في الشقة..

- آه، طبعا بنتك شجعته.. لا أظنه يدخل الشقة من شبابيكها، أو

دفع الباب لكسره..

- أكذب لو قلت لك مثل هذا الكلام، المهم استغل ضعف البنت وحبها له، وجرى ماجرى.. عارفة إن بنتى غلطانة وتستحق الذبح..

قاطعها الحاج قائلاً:

- ما جرى تم بموافقة ابنتك، شاركته فى جريمته.. لا يوجد حل إلا الزواج.

- لكنه لا يملك..

- يملك أو لا يملك، قلت لك ما أتوقع أن يقوله..

قَدمت زوجته بصينية الشاى، وضعتها وانصرفت، استطرد الحاج حسن قائلاً:

- وإن لم يقله، لا أستطيع إلا إجباره عليه، فى استطاعتى والحمد لله إرغامه على زواجها.. وأنا أرى أن ابنتك تريده وإلا ما فرطت فى نفسها.

ثم اتجه إلى علىّ وقال:

- ما رأيك يا أخ؟

قال علىّ وهو يرمق ابنة عمه بغضب..

- الحاج يقول الحل السليم، بنتك مخطئة، كدت أدخل السجن بسببها، وأنت أخفيت عنى وعن جيرانك الحقيقة..

قالت بعد أن لطمت خديها بيديها:

- يعنى أفضح نفسى وبنتى.. غصب عنى.. غصب عنى..

قال الحاج حسن:

- الله حليم ستار.. كل شيء يمكن إصلاحه.. وعليك أن تتقبلى كونه زوجا لابنتك، أن تعتبريه من أفراد الأسرة، وربنا يهيئ له الحال..

قام الحاج حسن برهوم من مجلسه، مشى حتى النافذة، أطل منها، قال بصوت مرتفع مناديًا على أبى سريع:

- أبو سريع..

أطل أبو سريع من نافذته :

- نعم يابا الحاج . .

- اذهب إلى الشيخ حسن المأذون فى بيته ، وأحضره معك ، لا تأت بدونه . . فاهم . .

- حاضر يابا الحاج . .

عاد الحاج حسن برهوم إلى مجلسه ، قال داعيا الله :

- ربنا يهدى العاصى . .

ينظر عليّ إلى ابنة عمه ، ضاغطًا أعصابه ، كذبت عليه فيما روته له ، وها هى تكذب على الحاج حسن ، لم تقل له أن ابنتها وأحمد معًا لا تعرف لهما مكانًا ، يعرف وهى تعرف سبب تأخر المعلم حنفى ، طبعا لم يجده .

بذل المعلم حنفى جهداً كبيراً فى البحث عن أحمد ، ظل يسأل كل من يقابله ، عاد مرة أخرى إلى بيت أخته بطة ، ليترك خبراً بأن الحاج حسن برهوم يطلبه ، لحق به ابن بطة الصغير وقال :

- أنا أعرف مكانه . .

أمسك المعلم حنفى بيد الولد قائلاً :

- خذنى إليه . .

قاده الولد إلى النادى ، وفى ركن تحت ظل شجرة رآهما ، انقض عليهما أمسك أحمد عيد بقبضته اليمنى ، والبنت بقبضته اليسرى ، ارتعبا ، قال أحمد :

- فيه إيه يا معلم ؟

وبكت البنت فى توسل وهى تحاول تخليص ذراعها من قبضته :

- والنبى يا معلم . .

صرخ المعلم حنفى مغتاظاً :

- قدامى يا ولاد . . ، يا مجرمين . .

ظل المعلم حنفى طول الطريق إلى بيت الحاج حسن يشتم ويسب، يلعن، ويهدد، دفعهما داخل البيت آمراً:

- اطلع يا فاجر.. اطلع.. اطلعى يا بنت..

تسمرا على عتبة الباب، فوجئا بأمها، دفع بهما المعلم حنفى حتى الكنبة، أجلسهما، قال للحاج حسن:

- افعل فيهما ما شئت.. بالإذن يا حاج..

استوقفه الحاج قائلاً:

- اقعد يا معلم، اقعد..

- والفرن.. الصبيان وحدهم..

- نصف ساعة على الأكثر، نفض المشكلة..

تنحنح أبو سريع وهو يصعد الدرجات ونادى:

- يابا الحاج..

- تعال..

دخل أبو سريع ومعه الشيخ حسن المأذون، قال الحاج حسن برهوم:

- جوازة بغير أوان يا شيخ حسن، افتح دفترك واعقد زواج الولد أحمد والبنت..

اتجه إلى البنت شاخطاً:

- اسمك يا بنت؟

- علية..

قالت اسمها مبتسمة، تنظر إلى أحمد، تخفى انفراجة شفتيها، تنظر إلى أمها تتصنع الكدر، تهرب بعينيها من نظرات علىّ، قال الشيخ حسن:

- وافوا السن يا حاج..

- عندك كم سنة يا أحمد؟

- ١٩ سنة..

- وأنت يا علية؟

- ١٧ سنة..

قال الشيخ حسن:

- على بركة الله.. البطاقات..

قالت الأم:

- أنا أمها، بطاقتى تنفع..

قال الحاج حسن:

- عارفة تاريخ ميلادها؟

ردت عليه:

-.... .....

نقل الشيخ حسن ما ترد به علية عن أسئلة الحاج حسن برهوم، نقل بيانات بطاقة أحمد، طلب بطاقات الشهود، قدم الحاج حسن بطاقته، والمعلم حنفى، نقل منها ما شاء من بيانات، ثم أجرى مراسم عقد الزواج..

خلعت أم علية منديل رأسها، فردت راحتيها أمام وجهها:

- الله يرضى عليك يا حاج حسن، ويطوِّل لنا فى عمرك، وتكون دائمًا المغيث لكل مستغيث..

وهمّت تخطف يده لتقبلها، امتنع الحاج حسن قائلاً:

- أستغفر الله ياست.. أستغفر الله..

قام فى وداعهم، أمسك بيد أحمد عيد وقال مهدداً:

- تعرف لو وصلتنى أى شكوى، الله يعلم رد فعلى وقتها..

قال أبو سريع ضاحكاً فى أذن أحمد:

- افرح يا قلبى، جوازة ببلاش، ربنا يهنى سعيد بسعيدة..

## ٢٨

أمضى صابر بين أسرته خمسة أيام، بقى مثلها على انتهاء الإجازة، بدأ يعد الساعات حزينًا متألماً، هى أطول إجازة يحصل عليها، كل إجازاته تنحصر بين ٢٤ ساعة و٤٨ ساعة، عندما علم بأمرها فرح، شعر بالغبطة، عشرة أيام بكاملها يعيشها فى الحياة المدنية، يرى فيها الدنيا، وحين أُعلن نبأ سفر كتيبته إلى ليبيا اغتم، سقطت فرحته تحت قدميه.

كانت فرحته غامرة عندما التقى أخاه عمر وقد حصل هو الآخر على إجازة، جاء من سفر طويل حيث تم تجنيده فى الدفاع الجوى، ونقل بعد التدريب إلى أسوان..

جلس عم حفنى إلى جوار نافذة الحجرة، مستنداً بكوعه على مسند الكنبة، ينظر عبر النافذة إلى الشارع، فقد الأمل، يشعر بالأسى، يتخيل أولاده الثلاثة صابر وعمر وعلاء مجندين جميعاً، يتخيل قدومهم من أول الشارع، والجيران ينظرون إليهم، وقد يطلق عليهم أحد ما فى سخرية «جيش عم حفنى»، وقد تصيبهم نظرة حقود فيسقط أحدهم إن لم يكن كلهم فى هوة قد تكون مرضًا عضالاً، أو إصابة فى تدريب، أو حالة نفسية تؤدى به إلى التغير فى السلوك أو التفكير..
يعرف جيداً أثر النظرة الحاقدة.. يذكر يوم لبس صابر البدلة البلزر لأول مرة، سمع جارتهم فى الدور الأول تقول «ماشى زى الرهوان»، عاد صابر سريعًا يتخبط فى سيره، تطيش خطواته، دخل البيت، سمع نفس صوت جارتهم تقول «حاسب على السلم»، وقبل أن تتمها سقط صابر على السلم، قام وذعر كل أفراد الأسرة ليجدوه طريحًا على ظهره ينهج، يعلو صدره ويهبط فى سرعة، تزداد ضربات قلبه عنفاً، حملوه

إلى السرير، ظل فى إغماءة طويلة قاربت النصف ساعة، هرول علاء إلى الميدان، استدعى الطبيب على عجل، أوقع الكشف الطبى عليه، قال «لا شيء، ربما حالة نفسية».. لم يتمالك نفسه من الغضب نزل درجات السلم، دفع باب شقتها وانهال عليها سبًا وشتماً، ومع كل كلمة سب أو شتم يشهر فى وجهها راحة يده بأصابعها الخمس مدببة فى الهواء تدفع شرها..

عرف الناس بما حدث، بدأت تشعر بالوحدة، كل النساء تتحاشاها، لا تحية صباح ولا مساء، لا كلمة، إذا التقت وجها لوجه بإحداهن بسملت بصوت مرتفع فى مواجهتها، لم تجد فى طاقتها قوة احتمال، فبحثت عن شقة وانتقلت..

تطهر البيت والشارع من شرورها، ظل صابر تحت رعاية الطبيب النفسى حتى تماثل للشفاء، بعد أن أتى على كل ما ادخره عم حفنى على أمل شراء قطعة أرض وبنائها لسكنى أسرته وأولاده عند زواجهم..

يستعيذ عم حفني بالله من الشيطان، وما يلبث الشيطان أن يعاوده، يقول لهما:

- لا يخرج أى منكما بعد الآخر، إلا بعد نصف ساعة على الأقل.. كفى ما جرى لنا من عيون الناس..

يرد صابر:

- الله هوالحامى..

يرد عم حفنى فى غضب:

- يا ابنى، العين فلقت الحجر..

ثم تلوح الذكرى فى خاطره فيردف:

- أنسيت ما جرى لك..؟

- ذهبت لحالها..

منذ جاء ولداها إلى البيت، تعد أم صابر كل يوم غذاء شهيًا، تكتظ الطبلية بصنوف مختلفة يوماً بعد يوم، تشعر بسعادة غامرة، تنظر إلى ولديها بعين الفخر والرضا، تتمنى أن ينهيا جيشهما على خير، تدعو أن يحرسهما مالك الملك، وترعاهما عين الله التى لا تغفل من كل شر.

نفس الفرحة تزغرد فى قلبى بنتيها فتحية ورومية، لم تعد أى منهما ترفض طلباً لأحدهما بعدما كانتا تغضبان، تشوحان بالرفض، تتثاقلان فى تلبية أى مطلب..

أعلن موظف البريد عن نفسه بالنداء باسم صابر حفنى فى مدخل البيت، هرولت رومية إليه وتسلمت خطابًا، قدمته لصابر قائلة:

- من كامل..

فضّه على عجل، تصفحه بسرعة، قال سعيداً:

- يرجع فى أكتوبر..

ثم اغتال سعادته بقوله:

- يا خسارة، لن أكون موجوداً..

خلع «بيجامته»، ارتدى بنطلونه وقميصه، دس قدميه فى «البنص»، قال:

- أنا ذاهب إلى عم حنفى أخبره بموعد رجوع كامل..

***

استقبله كارم باسم الوجه، مرحبًا فى مودة وألفة، قاده إلى حجرة الضيوف، لقيه عم حنفى بترحاب، وبهجة وسرور، عاجله بقوله:

- أخوك كامل يعود فى شهر ١٠

قال صابر:

- يرجع بألف سلامة، أمانة يا عم حنفى تسلم لى عليه، وأنت ياكارم، تقبل نيابة عنى خديه، قل له هذه من صابر..

بعد لحظة تطلع فيها إلى صورة كامل قال:

- كنت أتمنى أن أكون فى استقباله كما كنت فى وداعه، لكن ما باليد حيلة..

لمح صابر قلق كارم، أدرك من ارتدائه ملابسه كاملة استعداده للخروج فقال:

- لا تعطل نفسك، سأجلس مع عم حنفى بعض الوقت لأشبع عينى منه.

قال كارم:

- الحقيقة عندى عمل هام، فاعذرنى..

نهض صابر، احتضن كارم فى ودّ، تبادلا القبلات، يقول صابر:

- أراك على خير إن شاء الله بعد عودتى من السفر..

تطلعا إليه فى دهشة، قال كارم:

- سفر، والجيش..

وسأل عم حنفى:

- إلى الجبهة أو إلى مكان آخر..

قال صابر:

- إلى ليبيا..؟!

قالا فى دهشة معاً:

- ليبيا..

قال صابر محاولاً تبديد الدهشة:

- آراك بخير إن شاء الله.. أعتبرها نزهة رسمية..

استأذن كارم، يود أن يطير إلى سماح، ينقل إليها الخبر السعيد، يؤكد استجابة كامل لندائه، معنى رجوعه يفيد موافقته على ما عرضه عليه من المشاركة فى مشروع مع سماح، يتخيل - طول الطريق - «عدة مشاريع، كلها عدة أعوام، نقفز إلى العلا، نحقق الأحلام نرقى ونرقى، نقتنى الكماليات، نغوص فى أعماق الرفاهية، نخرج من عنق الزجاجة

الذى خنقنا، وضيع السنين من عمرنا»، تتقافز دقات قلبه كلما اقترب من بيتها..

أمسكت سماح برسالته، تقبلها، تغرقها بدموعها، تردد، ويردد معها الصدى:

- كامل.. حبيبى.. مهجة قلبى..

تجلس، تقف، تتمشى، تتطلع إليه، تحتضنه، تحتضن الخطاب بين حنايا صدرها، تمنت دفء حضن أمها، تمنت أن تزغرد وتوزع الشربات، تروح، تجىء، خرجت إلى الشرفة، لمحت كارماً قادماً إليها، هرعت إلى الباب لاستقباله، قالت فى لهفة:

- أخوك راجع يا كارم.. أخوك راجع..

تسمر كارم فى مكانه، شعر باهتزازة، زلزلة، استند إلى ضلفة الباب، قال وهو يزدرد لعابه:

- كيف عرفت؟

- وصلنى خطابه..

مشى فى بطء، جلس فوق أقرب كرسى قابله، تطلع إليها طويلاً، سألته:

- مالك؟ أدهشك الخبر..

قال فى كلمات بطيئة:

- أدهشنى، أدهشنى حقيقة التخمين، أدهشنى.. أسئلة كثيرة تدور برأسى.

قالت سماح، والدموع تحفر أخاديدها على وجنتيها:

- بيننا حب يا كارم.. بيننا حب يريد الله له أن يعيش..

# من قائمة الإصدارات الأدبية

## رواية .. قصة

| العنوان | المؤلف |
|---|---|
| ليلة العشق والدم | إبراهيم عبد المجيد |
| حمدان طليقاً | أحمد عمر شاهين |
| تباريح الوقائع والجنون | إدوار الخراط |
| رقرقة الأحلام الملحية | إدوار الخراط |
| مخلوقات الأشواق الطائرة | إدوار الخراط |
| لا أحد يحبك | أماني فهمي |
| دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢) | جمال الغيطاني |
| مطربة الغروب | جمال الغيطاني |
| دموع إيزيس | حسني لبيب |
| أحزان رجل لا يعرف البكاء | خالد غازي |
| الحب والتتار | خالد عمر بن ققه |
| أيام الفزع في الجزائر | خالد عمر بن ققه |
| يومية هروب | خيرى عبد الجواد |
| مسالك الأحبة | خيري عبد الجواد |
| العاشق والمعشوق | خيري عبد الجواد |
| حرب اطاليا | خيري عبد الجواد |
| حرب بلاد نمنم | خيري عبد الجواد |
| حكايات الديب رماح | خيري عبد الجواد |
| الطريق والعاصفة | رأفت سليم |
| في لهيب الشمس | رأفت سليم |
| اركبوا دراجاتكم | رجب سعد السيد |
| أنا كنده | كيروجا ترجمة : رزق أحمد |
| سيرة عزية الجسر | سعد الدين حسن |
| شجرة الخلد | سعد القرش |
| شهقة | سعيد بكر |
| أيام هند | سيد الوكيل |
| الممنوع من السفر | شوقي عبد الحميد |
| الدميرة | د.عبد الرحيم صديق |
| جسد في ظل | عبد النبي فرج |
| الفوز للزمالك والنصر للأهلى | عبد اللطيف زيدان |
| ليس هناك ما يبهج | عبده خال |
| لا أحـد | عبده خال |
| صعيدى صنح | د. عزة عزت |
| الشاعر والحرامى | عزت الحريرى |
| في انتظار ما لا يتوقع | عصام الزهيرى |
| إينارو | د. على فهمي خشيم |
| تحولات الجحش الذهبى | لوكيوس أبوليوس ترجمة د.على فهمي خشيم |
| سراديب | عفاف السيد |
| الزجاج المكسور | د . غبريال وهبه |
| ينابيع الحزن والمسرة | فتحى سلامة |
| يوميات عابر سبيل | فيصل سليم التلاوى |
| وتر مشدود | قاسم مسعد عليوة |
| خبرات أنثوية | قاسم مسعد عليوة |
| حب وظلال | كوثر عبد الدايم |
| ترانزيت | ليلى الشربيني |
| مشوار | ليلى الشربيني |
| الرجل | ليلى الشربيني |
| رجال عرفتهم | ليلى الشربيني |
| الحلم | ليلى الشربيني |
| النغم | ليلى الشربيني |
| الخرابة ٢٠٠٠ | محمد الشرقاوى |
| كوميديا الانسجام | محمد بركة |
| أشياء لا تموت | محمد صفوت |
| إلحاح | محمد عبد السلام العمرى |
| بعد صلاة الجمعة | محمد عبد السلام العمرى |
| الخروج إلى النبع | محمد قطب |
| رشفات من قهوتي الساخنة | محمد محي الدين |
| الحبيب المجنون | د. محمود دهموش |
| فندق بدون نجوم | د. محمود دهموش |
| الهروب مع الوطن | ممدوح القديرى |
| نسيج الأسماء | منتصر القفاش |
| ثلاث حقائب للسفر | منى برنس |
| حافة الفردوس | نبيل عبد الحميد |
| ديسمبر الدافئ | هدى جاد |
| خلف النهاية بقليل | وحيد الطويلة |
| فرد حمام | يوسف فاخورى |

## شعر ..

| العنوان | المؤلف |
| --- | --- |
| أول الرؤيا | إبراهيم زولى |
| رويدا باتجاه الأرض | إبراهيم زولى |
| قصائد حب من العراق | البيـاتى وآخرون |
| بدلا من الصمت | درويش الأسيوطى |
| من فصول الزمن الرديء | درويش الأسيوطى |
| تماماً إلى جوار جثة يونسكو | رشيد الغمرى |
| كأنها نهاية الأرض | رفعت سلام |
| الألوان ترتعد بشراهة | شريف الشافعي |
| صلاة المودع | صبرى السيد |
| دنيـا تنادينـا | طارق الزياد |
| تلف | ظبية خميس |
| البحر، النجوم، العشب في كف واحدة | ظبية خميس |
| كتاب الأمكنة والتواريخ | عبد العزيز موافى |
| حواديت لفندى | عصام خميس |
| سيرة الماء | د . علاء عبد الهادى |
| راتب الألفة | علوان مهدى الجيلانى |
| إضاءة فى خيمة الليل | على فريد |
| نصف حلم فقط | عماد عبد المحسن |
| عطر النغم الأخضر | عمر غراب |
| سراب القمر | فاروق خلف |
| إشارات ضبط المكان | فاروق خلف |
| أوراق مسافر | فيصل سليم التلاوى |
| إذهب قبل أن أبكى | د . لطيفة صالح |
| الغربة والعشق | مجدى رياض |
| مشاعر همجية | محسن عامر |
| غربة الصبح | محمد الفارس |
| ونس | محمد الحسينى |
| ليالى العنقاء | محمد محسن |
| العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر | نادر ناشد |
| هذه الروح لى | نادر ناشد |

## مسرح ..

| العنوان | المؤلف |
| --- | --- |
| هذه الليلة الطويلة | د.أحمد صدقى الدجانى |
| اللعبة الأبدية ... (مسرحية شعرية) | محمد الفارس |
| مملكة القرود | محمود عبدالحافظ |

## دراسات ..

| العنوان | المؤلف |
| --- | --- |
| هاجس الكتابة | د . أحمد إبراهيم الفقيه |
| تحديات عصر جديد | د . أحمد إبراهيم الفقيه |
| حصاد الذاكرة | د . أحمد إبراهيم الفقيه |
| الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية | أحمد الأحمدين |
| قراءة المعانى فى بحر التحولات | أحمد عزت سليم |
| ضد هدم التاريخ وموت الكتابة | أحمد عزت سليم |
| اللغة والشكل | أمجد ريان |
| المثقفون العرب والتراث | جورج طرابيشى |
| ثقافة البادية | حاتم عبد الهادى |
| المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين | خليل إبراهيم حسونة |
| أدب الشباب في ليبيا | خليل إبراهيم حسونة |
| العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى | خليل إبراهيم حسونة |
| أباطيل الفرعونية | سليمان الحكيم |
| مصر الفرعوبية | سليمان الحكيم |
| البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية | سمير عبد الفتاح |
| رواد الأدب العربي فى السعودية | شعيب عبد الفتاح |
| البواكير فى القصة القصيرة | شوقى عبد الحميد |
| رحلة الكلمات | د . على فهمى خشيم |
| بحثاً عن فرعون العربى | د . على فهمى خشيم |
| أعلام من الأدب العالمى | على عبد الفتاح |
| هيمنجواى حياته وأعماله الأدبية | د . غبريال وهبة |
| زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة | مجدى إبراهيم |
| فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع | محمد الطيب |
| الجات والتبعية الثقافية | د. مصطفى عبد الغنى |
| أدب الطفل العربى بين الواقع والمستقبل | ممدوح القديرى |
| الرواية العربية : رسوم وقراءات | نبيل سليمان |

**بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .**
**خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.**

## المؤلف

- **جمعة محمد جمعة**
- عضو اتحاد الكتاب - نادى القصة - جمعية الأدباء - جمعية أنصار حقوق الإنسان - رابطة الأدب الحديث.
- حصل على :

- جائزة مجمع اللغة العربية عام ١٩٧٥ عن قصة (قلب الأم) .
- جائزة نادى القصة عام ١٩٧٧ عن قصة (العدو تحت ضوء القمر) .
- جائزة محمود تيمور عام ١٩٩٣ عن مجموعة قصص (حياة رخيصة) .
- جائزة إحسان عبدالقدوس عام ٩٣ - ١٩٩٤ عن رواية (المراهقون) .

- صدر له :

| | | |
|---|---|---|
| - الأبيض والأسود | قصص | ١٩٧٧ |
| - قلب الأم | قصة | ١٩٨٣ |
| - مهزلة عائلية | مسرحية | ١٩٨٧ |
| - حياة رخيصة | قصص | ١٩٩٢ |
| - هى امرأة | قصص | ١٩٩٤ |
| - المراهقون | رواية | ١٩٩٨ |
| - الأيدى الدافئة | قصص | ٢٠٠٠ |